قطر الندى

د. مصطفى عطية جمعة

الكتاب : قطر النـدى (مجموعة قصصية)
المؤلف : د. مصطفى عطية جمعة
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٣
رقم الإيداع : ١٠٨١٦/ ٢٠١٣
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 156- 7

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



قطر الندى

مجموعة قصصية

د. مصطفى عطية جمعة

إلى ثوار٢٥ يناير ٢٠١١

صانعي ثورة اللوتس

وإلى الدماء المسك

الفهرس

عين الحسود فيها عود

الخبيث

.. كان الحكيم (الطبيب) يخرج العظم من ظهرها مفتتًا.

أرهفتُ سمعي لجدتي وهي تهمس لجارتها أم محمود التي استفسرت:

– أي مرض هذا الذي أصاب الست زكية ؟

– المرض الخبيث، يكفينا ربنا الشّر.

– اللهم آمين.

كانتا جالستين في شمس الضحى، فوق سطح بيت جدي، وقد أحكمتا تغطية سيقانهما هربًا من برودة " أمشير " [١]، انشغلت جدتي بتفكيك " بمية " مجففة منذ الصيف الماضي، وقد شبّكت ثمراتها بخيط، وعلّقتها في ركن بالمطبخ.

يحيرني مشهد العظام المفتتة، يلح السؤال في أعماقي، همهمت، ثم استجمعت شجاعتي وسألتها :

– لماذا سموه الخبيث يا خالتي ؟

لن تتضايق جدتي من إلحاحي، وستجيب عما يدهشني، تطلعت إلى عيني، وتكفلت أم محمود بالرد :

(١) اسم لأحد الشهور حسب تقويم السنة القبطية المصرية القديمة.

– من غضب الله يا بني.

– لو عصيت الله، أيصيبني الخبيث ؟

احتضنتني الجدة بخوف، قائلة :

- سلّمك الله يا حبيبي.

أعود لتساؤلي، والعظام المفتتة تتخاتل أمام عيني كالطحين :

- وماذا حدث للست زكية ؟ كيف استقام ظهرها ؟

ترد جدتي :

- خرج السر الإلهي بعد أيام.

(١)

كان دائم المرور على خالي وقت المغربية؛ إنه " ممدوح" ذو الجسم المشابه لجسم أحمد رمزي، يأتي ويرفع صوته ذو النبرة الرفيعة مناديًا خالي، ولأنني كنت ألعب في الدهليز الخارجي لبيت جدي، أسرعت بتحريك باب البيت الخشبي الكبير الذي يدور حول محور خشبي، وأسمع اهتزاز المطرقة الحديدية المدلاة، ثقيلة هي عندما حملني أخي الأكبر وحاولت استخدام مقبضتها. خرجت مجيبًا :

– أهلاً يا أستاذ ممدوح، خالي موجود.

– نادِ عليه.

أدخل، فأجد خالي قد انتهى من ارتداء ملابسه : قميصًا لبنيًّا وبنطالاً أزرق، وراح يلمع شعره بزيت أخضر اللون، أقول له :

– الأستاذ ممدوح..

يقاطعني، وهو يلبس حذاءه :

– سمعته، سأخرج له.

اليوم الجمعة، موعد خروجهما، نظرت لملابسي؛ ألبس فانلة برتقالية على شورت أسود، سأتشبث بهما، سيذهبان للسينما، ويتعشيان. تعلقت بيد خالي، رفض : (ستنام منا)، صرختُ وضربتُ الأرض بقدمي، ارتفع صوت جدتي وجدي : (خذه معك، هذا عيّل).

تعلقتُ بيد " ممدوح "، وأنا أسير معهما في شارع البحر، منشغلاً بأكل " كوز ذرة " مشوي، وهما غارقان في حديث باسم تصلني منه كلمات متناثرة.. دقائق وكنتُ غارقًا في ظلام السينما، ظللتُ واقفًا؛ فقد دخلتُ مجانًا لصغر سني، أتأمل الشاشة فضية اللون، وأشاهد الفيلم الأجنبي : معارك بالأيدي، طلقات الرصاص متتابعة، أجساد تتطاير، تمتلئ الشاشة بطائرة هليكوبتر.

شعرت به يحملني في العودة، " ممدوح "، كان حانيًا، ورفض أن يوقظني خالي عند اقترابنا من البيت.

••••

هزيلاً كان، حينما مرَّ على خالي، وآثر أن يجلسا في غرفة الجلوس ذات الكنبات الأربع. ضعيفٌ صوته، شاحب الوجه، تعروقت يداه، وقميصه فضفاض على صدره.

– ماذا حدث للأستاذ ممدوح ؟

– مريض، ربنا يشفيه.

أجابني خالي بهمسة حزينة، بعدما أوصله إلى باب البيت، حاولت أن أستفسر أكثر؛ منعتني جدتي، التي سألته فأجابها :

– المسكين يتحرك رغم المرض، مشتاق للشوارع، قبل أن يسافر.

– يسافر أين ؟

– إلى القصر العيني.

••••

غاب خالي أسبوعين؛ مرافقًا لممدوح في القاهرة، فهو وحيد على إخوته البنات... وحين عاد خالي، كانت ملامحه ضائعة وسط شعر لحيته الذي نما دون تهذيب. لم أستطع التقاط إلا جُملاً مبعثرة، لم أجد فيها " عملية جراحية "، وإنما " دواء كيماوي ".. وأنهم أعادوه إلى البلد.

••••

ذهبتُ مع جدتي إلى بيته، لم يظهر من جسده إلا وجه بارز العظم، ورأس متساقط الشعر، تراكمت عليه أغطية عدة؛ ألحفة وبطاطين وملاءات. وقفتُ مرتكنًا، وجلستْ جدتي وهي تتمتم بالشفاء، وترتشف كوب الشاي الذي أعدته أخت ممدوح، أتطلع إلى نافذة الغرفة؛ لا تنفذ أشعة الشمس إلى أعماق البيت، ربما لأن بيتهم في آخر حارة مسدودة، وحوله بيوت عالية البناء. الصمت جاثم في العيون، وأم ممدوح ملاصقة لابنها، تتمتم بما تحفظه من آيات القرآن، وهي تتحسس الرأس الأقرع.

استندتْ جدتي على كتفي في عودتنا، كانت ملاءتها السوداء تغطي كتفيّ، شعرت بوهنها، سألتها :

- ما مرضه ؟

شعرتُ بحيرتها، ألححتُ بتكرار السؤال، همستْ:

- الخبيث.. ربنا يعافينا منه يا بني.

شهقت، لم أرَ عظاما مفتتة، والجسد سليم، فقط الجلد كاسٍ العظم.

••••

كان مشهده عزيزًا على سكان الحي، أمه في صدر الحارة تخربش طوب حائط بيتها، علَّها تدلف وتلمس الجسد العظمي الذي يُغسَّل في الغرفة " الجوانية " فيما تراصت كراسٍ؛ تملأ فناء الحارة.

تعلقت الأم بالنعش، تشبثت بها ابنتاها، تقدم النعش حاويًا العظام الجلدية، خفيفًا تتناقله الأكتاف بيسر.

(٢)

كانت ممددة على السرير النحاسي ذي القوائم الحديدية، جدتي، أتأمل جسدها النحيل القصير، وقد اكتسى بصفرة داكنة، وغامت عيناها. شعرها الأبيض متناثر على مخدة بهت لونها.

- ماذا بكِ يا جدتي ؟

ظلت عيناها في اللا شيء، قبضت على كفها، الأصابع المعروقة تذوب في كفي الصغير. أنظر لأمي التي أخفت وجهًا باكيًا، السؤال في فراغ الغرفة بسقفها الخشبي العالي الذي يبثُّ رطوبة تكتم الألسنة.

••••

هذه المرة الأولى التي أرى فيها المستشفى العام (الأميري)، بناء أبيض كبير أتيه في معالمه. أبقوني في الحديقة، انطلقت على النجيل، مساحات خضراء تتوسطها أحواض زهور جافة، غرقت في الحشائش الطويلة، أتقلب على الأرض، انتبهت إلى همس أمي أن أبقى هنا؛ التساؤل في أعماقي. سأظل وحيدًا على النجيل ونباتات بلا زهرات، وأخرى شوكية الملمس؛ أدمت أناملي. أسترجع همسات أمي وخالتي:

-.. العملية نجحت، والطبيب أخرج الورم من بطنها.

سأصعد لجدتي، سمعتُ أمي تهمس لخالي أنها بالدور الثالث، أرتقي السلالم، تملأ أنفي رائحة الكحول، يتداخل لون الجدران مع بياض الأسرّة وملابس الممرضات. أصل للدور الثالث، أغرق وسط ردهاته، أتنقل بين العنابر الكبيرة، تجوس عيني الأسّرة، تتشابه الوجوه، تتداخل، تصبح مزيجًا من البياض والاصفرار مشبعًا برائحة الدواء.

في عنبر أوسط، رأيتها، في السرير الأول، حولها أمي وخالتي وخالي، وجهها شديد الاصفرار، غابت شفتاها فاستحال فمها خطًا باهتًا، شال أسود يلف صدرها، طالعتني بعينين ذات حدقتين باهتتا السواد. ارتكنت بجوارها، وكلمات أمي المعنفة تلاحقني، تحسستني بيدها، عروق ذراعها على خدي، ألتصق فيها، وأتحسس جسدها.. ثمة ضمادات عند بطنها، شعرت ببرودة في أعماقي.

••••

في الدهليز الداخلي لبيت جدي، الكفوف تحمل جسدها ملفوفًا بقماش؛ لم أميز لونه وأنا غارق وسط الأرجل، فيما لهجت الحلوق بالأدعية، والنعش ذي البروز الرأسي في مقدمته يتحرك خارج البيت.

••••

أبكي مستحضرًا جسدها بضماداته :

- جدتي كانت طيبة ؟!

ردَّ جدي في جلسته جانب الشباك ذي الضلفات الطويلة :

– .. المرض يا بني بلاء أو ابتلاء.

••••

وحيدًا كنتُ على سطح البيت، الشمس متسلطة على رأسي، قلبي منقبض، أسرع بالنزول عبر السلم الخشبي، أتوقف عند الغرفة السفلية " الخزانة "، صناديق مبعثرة، وأخشاب وحدايد.. في ركن الغرفة، كومة من طين رطب؛ آثار أصابع عليه، عبثت به، تبدو ملابس مطمورة، أزيح الطين، إنها ملابس جدتي، أقلبها، مصطبغة بدماء جافة. رائحة جدتي تشعل أعماقي نارًا.

* * *

مياه النـَّار

دائما مغلقٌ هذا الدكان، القابع أسفل بيت عم " حليم "، بابه خشبي ذو ضلفات أربعة، مكتوب أعلاه " محل بويات "، دون اسم أو سجل تجاري. أعلم أن صاحبه المعلم " إبراهيم "، ومحله في آخر شارع الروبي المؤدي لميدان المبيضة، ولكنني أجد الأسطى " ربيع " يجلس أمام الباب المغلق، ويدخن الشيشة، وهو ساهم. أتأمل وجهه : آثار السهر راسخة في ملامحه المنتفخة. من الصباح وإلى الظهيرة، يجلس على كرسي من مقهى " زغلول " محشوة مقعدته بعفش الأرز، بآلية يغيّر صبي المقهى حجر الشيشة كلما خبت نارها.

الباب مفتوح، وكرسي المقهى خاوٍ، توقفتُ، كنتُ في طريقي إلى سوق الخضار لشراء بصل صعيدي. قدمي إلى داخل المحل، ربيع مولٍ ظهره، واصلت التقدم، ضوء المصباح الأصفر يشارك ما تسرب من أشعة الشمس في تبديد ظلام المحل؛ الذي جاء في مكان منزوٍ من الحارة، فينأى عنه قرص الشمس، ولا تفلح في إنارته اللمبةُ الصفراء المدلاة من السقف. الحيطان مقشرة الطلاء، مسودة اللون، وثمة صناديق وعدة براميل وزمزميات بلاستيكية في أركان المحل. منهمكٌ ربيع في صب سائل يفور بالدخان من برميل إلى زمزمية، ثم يغلقها بإحكام. قليلة هي القطرات التي صبها ربيع، واحتلت قاع الزمزمية كما بدت في الضوء ثم حملها الزبون بعدما ناول ربيعًا خمسة جنيهات، استكثرتُ المبلغ على القطرات.

الباب يوصَد، وربيع على كرسيه، ودخان الشيشة يصّاعد.

تتبعتُ الزبون، أحسستُ بشبهٍ بينه وبين ربيع، السؤال في حلقي، أنطق:

– يا عم، يا عم، ماذا في الزمزمية ؟

– مياه النار.

حملت الإجابة استفسارًا إلى جدي، الذي ضحك وهو يقول:

– إنه يشوي الجسم، ويفتت الحديد والنحاس، يذكرنا بشراب جهنم.

(١)

صرختْ زوجة " سيد " بائع البطيخ فيه، وهي تشير إليه :

- يا مرسي، أنت آكل لقمة زيادة عن الناس.

تحلو له الجلسة في مقهى زغلول في ميدان المبيضة، ساعة المغربية، حوله عدد من شباب الحي وقد ارتفعت ضحكاتهم، يفتح أزرار جلبابه المكوي بعناية، وقد عقف كُمّيه باستدارة عند رسغيه، وانسدل شعره على جبهته وكتفيه. كنت أشتري حلاوة طحينية شعر من محل "حسن السواح"، آثرتُ أن أرتكن جانبًا، ممسكًا بزجاجة مياه غازية. تلتقط أذني كلمات من حديثه الذي خبا صوته قليلاً، تحدث عن البنات الحلوة اللائي يمشين معه، مُقسمًا بالأغلظ أيمانًا صدق ما حكاه عن البنت التي اختلى بها في بدروم منزلهم، ولما قاومت فتح مطواة " قرن الغزال " عليها، صارخًا:

- يا بنت الوسخة، جسمي نار مولعة.

يسأله أحدهم ماسحًا جوخه :

- ماذا فعلتَ في نقطة الشرطة أمس ؟

يضحك مرسي، هازئًا :

- كنتُ أشرب سيجارة محشية، عند سيد الفكهاني، ومرَّت عربة شرطة فيها ضابط عيّل جديد، أنا رميت السيجارة في الأرض، وهو نزل أخذني للنقطة.

- حبسوك.

- هههه، طلعني الصول " زكي " بعشرين جنيهًا، وسجلوها قضية.

• • • •

في تجمّعهم الليلي أمام منزل القاضي، جلسوا على المصطبة الحجرية، كنتُ أصغرهم، احتميتُ بأخي الكبير، تهامسوا عن مرسي :

– قابل البنت " تحية " في العامود، قال لها : لو تكلمتِ يكون جزاؤك "شوية" مياه النار، على وجهك الحلو، يا حلو. البنت كتمت صراخها، وجرت في الشارع.

وقال آخر كأنه يفشي سرًّا :

– واحد من أقاربه، يقولون خاله، أمسكه في البدروم مع بنت، فتح المطواة عليه، وهو محشش، ولولا أن خاله هرب، لقتله.

••••

يخفي وجهه بشال أبيض، يظهر ليلاً، متسكعًا في دكاكين "الخضراوية والجزارين "، همسات الناس:

– انتظرتْه " تحية " عند البدروم، ورشّت عليه.

– ناس تقول إن أخاها هو السبب.

رفعت صوتها زوجة سيد، وهي جالسة على عربة زوجها الخشبية تنادي على تفاح مائل للحمرة :

– قلت له : لا تأكل أكثر من الناس.. والله البنت تحية مجدع.

يضاحكها زوجها :

– والله العظيم، لم يكن فيه بدروم ولا أي شيء، كان يفتح صدره قدام الشباب.

(٢)

يركب الموتوسيكل فاردًا ذراعيه ويميل يمنة ويسرة، يفر العيال من أمامه، هذا هو " علي " ابن المعلم " محمود القللي " الجزار، نفس أبيه : سمرة الوجه، والطول الفارع، والجسم الممتلئ. حين وصل مقهى " زغلول "، قال له أحد الشباب، وقد علم السرّ :

- ألا تخاف أن يبلغ أحد عنك وأنت تلعب على المتوسيكل يا علي ؟

فهم علي الإشارة :

- لا تنس أننا ملوك الحي.

حسرة في نفوسهم، وهم يرون ابن العشرين، قد ذاق النساء من سنين، زوّجه أبوه وأقام فرحا جمع الحي فيه، وغنم عشرة آلاف جنيه من النقوط، بعدها صار الولد يجلس مع الرجال المتزوجين ويغمز لهم، ويهمس، ويرفع صوته للشباب :

- " الرجال تجلس مع الرجال ".

تناثرت في الحي أن هناك من أبلغ الجيش عنه، وأنهم قبضوا عليه، وتركوه بـ " واسطة "؛ دبّرها والده.

في الجلسة نفسها، قال علي وهو يمتص عنّابا :

- الفلوس تشتري أثخن رأس في بلدكم.

• • • •

- في المستشفى، بين الحياة والموت.

قالها " زغلول "، للشباب المتجمع على الكراسي أمام مقهاه فاستفسروا منه، ولكنه لوى رأسه، ومضى بصينيته.

التقت الأعين، وتحلقت في دائرةٍ الوجوه، وعلا صوت سيد الفكهاني الواقف أمام دكانه، وقد سدّت عربته الخشبية باب الدكان، وعليها برتقال مرصوص بعناية:

– هذا من ربيع " الكلب "..

اقترب منه حسن السوّاح " البقّال " فضحك سيد:

- مسكين الولد، مشى وراء ربيع، أنا قلت له: اقطع إصبعك، وقل لهم طار في ماكينة فرم اللحم في دكاننا، ويعفونك من الجيش وترتاح.

- وماذا حدث ؟

- ربيع قال له: نقطة واحدة في أذنك، وتريح نفسك، ثم عملية بسيطة وترجع تسمع مرة ثانية، مادام الضابط الواسطة قال لك: يلزمك عاهة.

- تقصد: نقطة مياه النار !؟

••••

ضلفات باب الدكان مغلقة، ربيع غارق في شيشته، عيناه ساهمتان في اللاشيء، يبدو وجهه كابيا بين نفثات الدخان، الناس في جيئتها وذهابها، لا يعلمون أنه يعد السويعات كي يذهب لينام ثم يخرج ويبدأ سهرته في دكان سيد، ويعلمون أن مرسي بدأ في السهر معهم لزوم الخدمة، وتدبير أمور الكيف، وأن " ربيعًا " أقسم له أن من رشّه كان من حي البارودية، وأنه لم يبع قطرة واحدة لابن القللي.

* * *

الخطَّاط

أتعجب من جسده الضخم، وكرشه المتدلي أمامه، وهو يجلس على مقعد خشبي عال، ويخط بفرشاة عريضة على اللوحات القماشية. كيف يتحكم في الألوان الزيتية في قعدته العالية ؟ أشفق على الولد الصبي الذي يقف بجواره، حاملاً علب الألوان، مناولاً الأسطى، الذي ألقى تحذيراته :

– انتبه يا ولد.. لو أعطتني لونًا مختلفًا يخرب الشغل كله.

– حاضر يا أسطى " كمال ".

يشد القماش الأبيض المثبت على الجدار، ويبدأ في الكتابة، أتعجب من عدم انثيال الزيت على القماش. يبرع في كتابة الخط الفارسي، أشعر بيده الممتلئة تضغط على الفرشاة، وتتموج مع انحناءات الحروف. يستهويني رسم حروف الحاء والجيم والخاء عندما تسبقها " ال " التعريف.. ما أروع اللام عندما يظللها البنفسجي، وهو ما يبرع فيه هذا الخطاط. أنتبه من وقفتي على نظرته، ضنين بالكلام، اعتاد على حملقة المارة إليه، أواصل سيري.

••••

عند عودتي من المدرسة، أمرُّ من حارة " ربيع " المتفرعة من ميدان المبيضة، تختصر طريقي إلى البيت وأشاهد كمال الخطاط، أفارق أصحابي : إسماعيل وهاني، عند نهاية شارع المدارس. يسلك إسماعيل طريق " درب الطباخين " متخذًا شارع البحر في جانبه الأيمن، أما هاني فقد اجتاز ميدان المبيضة، ومنه إلى شارع الشط. أصل إلى الحارة، لا أحب المرور من ميدان المبيضة، حيث سوق الخضار، وطلاب المدرسة الثانوية العسكرية المتسكعون في الزوايا، في انتظار الطالبات. على ناصية الحارة بائع البطيخ " سيد "، يقف خلف عربته، وزوجته مشغولة بإطعام ابنيها سمكًا مشويًا، يبدو أنها اشترته من " أم علي " التي تشوي السمك وسط السوق، وتملأ الأنوف برائحة شواء السمك المغموس في الرّدة والشطة السائلة.

وسط الحارة، الباب الخلفي لفرع شركة " ماتوسيان " للدخان، تقف سيارة الشركة الزرقاء، أرى صندوقها الحديدي مفتوحًا، والعمال يضعون في السيارة الكراتين وقد طُبع عليها اسم الشركة بخط الرّقعة، علت جلبة العمال لتملأ الحارة، وتغطي على نقيق الدجاج الصادر من العشش فوق الأسطح.

أتوقف أمام " كمال "، يبدو السهر في عينيه وهو يفتح دكانه في الظهيرة، ويدلف فيه، الدكان ضيق؛ كيف حوى علب الألوان والفرشات وهذا الجسد الكبير ؟.. يخرج حاملاً لفة كبيرة من القماش، ساعده الصبي بتمزيق البلاستيك حول اللفة، يبسط القماش، يحمله إلى جدار الشركة الأصفر، يناوله الصبي ــ المتوقع أفعال معلمه ــ المسامير والشاكوش. يتثبّت القماش الأبيض على الحائط. يخط كمال بقلم رصاص كبير مشطوف السن كلمات الإعلان، أتجمد مكاني،

يمسك بالفرشاة، ينظفها بـ " الثنر"، ثم يغمسها في علبة اللون الأسود؛ تضايقت من السواد السائل، اللافتة دعاية لافتتاح جزارة كبيرة، وسرعان ما أنهى الكتابة، وكان اللون الأصفر ظلاً للحروف، ثم وقع باسمه؛ ثلاثة ألفات، وضع الكاف على أولها، والميم وسطها، وحاءً معكوسة آخرها.

••••

في حصة الخط، أحضرت قلما مشطوفا، يشابه فرشاة "كمال"، ثم تلوّت أصابعي بالخط الفارسي، متجاهلاً تعليمات معلمة اللغة العربية: (اكتبوا بخط الرُّقعة)، الحروف الذيلية أسفل السطر: الحاء وأخواتها في آخر الكلمة، ومعها الميم والهاء. كأن أصابعي مثل أصابعه المكتنزة لحمًا، بأظافر مخضبة بألوان عدة. تعرف الأبلة أن خطي حسن، إذا سألتني، سأرد عليها أن الخط الفارسي يشابه خط الرقعة، ستتعب من جدالي، هل سيعجبها خطي الجديد ؟، خلف الورقة، كان علي أن أتدرب على توقيع جديد، تمنيتُ أن يكون اسمي قليل الحروف، ليشابه إمضاء كمال.

••••

" ياه "، ما أكثر ما يطالعني التوقيع ثلاثي الأحرف ! لافتات خشبية أعلى الدكاكين، كان يكتب منذ زمان بعيد بخطوط: الثلث، والرقعة، والديواني.. لماذا اقتصر على الخط الفارسي الآن ؟ظل السؤال في أعماقي وفي مروري اليومي عليه، وأقرأ الجديد عنده من لافتات، وأتوقع أين ستعلق. في اليوم الثاني، أقول لزملائي هاني وإسماعيل، أن هناك إعلانًا لجزارة فلان، أو محل قماش علّان.. يتعجبون، قبل أن نفترق وأذهب إلى الجسد الممتلئ، في الصيف يرتدي قميصًا نصف كُم، وفي الشتاء أكمامًا كاملة، دون جاكت أو سترة صوفية. بتُ أكره الخط الفارسي، وأنا أذهب متعمدًا إلى الخطاط " سليم " بشارع الورشة وأشاهد الخط الديواني الذي يبرع فيه، عشقت الحروف المقوسة، وهي تتراقص.. تتلوى في اتجاه واحد، صانعة مزيجًا ثعبانيًا عجيبًا.

••••

لم أصدق عيني، أهذه زوجته ؟! جسد نحيل في عباءة سوداء، ووجه مستكين القسمات، وملامح مكررة بين النساء، يبدو أنها ذاهبة للسوق. كنتُ – ساعتها – عائدًا من المدرسة، نهاية العام الدراسي، وشمس الصيف تتسلط على رؤوس المارة، فتلوذ بجدران البيوت في سيرها.. فكَّ " كمال " أزرار قميصه إلا واحدًا، فبان لحم صدره، وشعره الكثيف. وقفتُ بعيدًا بعض الشيء، أعلم أن رأسه ثقيل فلن ينظر نحوي. يكتب بآلية، ويحدثها بوجه جامد، أو هكذا خُيّل إليّ، فتهدل خدوده، وشفاهه المكتنزة، والحاجبان الكثيفان، تمنع أية انفعالات تبدو للعيون. كان يحاورها فيما سيأكلون على الغذاء. تقول بصوت متوسط النبرة، خالٍ من الأنوثة، وقد أمسكت شنطة بلاستيكية سميكة، صناعة منزلية:

– نأكل محشي كرنب ؟

– كرنب الصيف بدون طعم.

– هل أشتري المحشي باذنجان وفلفل ؟

لم يعلق، يفكر، تعجبتُ من أصابعه التي تخط بثبات، فأكملت هي :

– وأذبح فرخة من عندي.

– طيب.

مدَّ يده في جيب قميصه، وأخرج بعض الجنيهات، فامتدت يد زوجته، انتبهتُ إلى طفل صغير، كان يلهو أسفل قدميّ والده، حملته الزوجة على كتفها فجلس بهيئة الحصان، لم يرد كمال على تحيتها.

حين وصفت لزميلاي زوجة كمال، ضحكا، كانا يعرفانه، ويرددان ما ينعته الناس به " الخطاط الجاموسة "، وغمز إسماعيل بعينه وهو يهمس :

– الله يعينها عليه.

• • • •

مقهى " زغلول " في ميدان المبيضة، كنا قد فرغنا من مشاهدة المباراة في التلفزيون الملون. طالعنا من بعيد، "أيوب" بائع الفاكهة، شاب " عايق " ويتبختر بشعره الغزير، تتحاشاه الصبايا، وتشتري منه ربات البيوت، يتخذ رُكنًا، مستندًا على إحدى طاولات المقهى المصنوعة من الجريد. التف العيال حوله، كان يرسم صورة عبد الحليم حافظ على ورق مقوى. بارع في رسم الوجوه، أتذكر ما رسمه " كمال " على جدار حائط في مدخل ميدان " الروبي "،

شخص يقف يصيح: (قف، هنا محل اكسسوار السيارات)، كان الوجه بملامح كبيرة لا تتناسب مع الجسد الصغير، واليد ضخمة. أعجبني وجه عبد الحليم، حالمًا، منثال الشعر، بقميص مقلم، تصلبت عيناي على الصورة، كان أيوب يرسم بقلم فحم، يتحرّك القلم صعودًا وهبوطًا بحرفية، كل هذا للفكهاني العايق ؟!

يكثف من الخطوط السوداء عند الشعر، ثم يمسحها بقطنة، فتصبح الخطوط سوادًا صافيًا، كذلك مع حواف الصورة.

صعد سُلمًا خشبيًا، وثبَّت اللوحة فوق جدار، أعلى عربته الخشبية. في اليوم التالي، كان ينادى على الموز ويردد أغنية " صافيني مرة وجافيني مرة ".

• • • •

- انتخابات البلدية بدأت، والدنيا ولّعت في البلد.

قال أبي وهو يجلس في كرسيه المعتاد، ويأخذ كوب الشاي من أمي، التي ردَّت ضاحكة :

– أرزاق ! ناس تترشح وتدفع، وكمال الـ.. يكتب.

اكتست جدران حارة ربيع بالقماش الأبيض المتمدد أمتارًا. أقرأ " انتخبوا مختار.. " وعبارات أخرى.. أبتسم، هذا مختار كهربائي السيارات، كما تحكي أمي، ربنا فتح عليه، وتاجر في دينامو السيارات المستعمل، والبطاريات.. يحمّلها من بورسعيد، ويبيعها في بلدنا، ولكنه رجل طيب.

امتلأت شوارع ميدان المطافئ بدعاية مختار، وفي الليل، تجوب العربات والموتوسيكلات البلد، كل أحبابه من "الصنايعية والسمكرية"، "بيب بيب.. مختار، بيب.. بيب مختار"، كان الحاج مختار راكبًا في أول عربة، ومعه ابنه الكبير، يلوّح بذراعه، بدا الحنق عليه عندما لاحقَ موكبه سياراتُ محمد القاياتي، تاجر الحديد والأسمنت، محلاته في ميدان الحواتم.

– المعركة ولّعت بين مختار والقاياتي.

قال أبي، وهو يرتشف الشاي، وعيناه مثبتتان على التلفزيون ذي اللونين (الأبيض والأسود) :

– الكل صدّق كلام الحكومة، حتى " توبة " العجلاتي، رشَّح نفسه في آخر يوم. وقال للناس : نفسي أتكلم، والحكومة تسمعني.

بعد صلاة الجمعة، رأيته، الأسطى توبة، يرتدي بذلة صيفية جديدة، يوزِّع أوراقًا مطبوعة بأحرف كبيرة، متباعدة المسافات، التف الناس حوله، أسمع همسات الناس وهم يقلبون النظر: "توبة يضيّع فلوسه.. ينافس المعلمين الكبار"، ردّ عليهم : نفسي أتكلم.. بصوتٍ عالٍ.

رفع أحد الشباب صوته وكان متخفيًا وسط زحام المصلين :

- غيّر يا أسطى توبة رمزك الانتخابي من الشجرة إلى "العجلة".

• • • •

الوحيد الذي لم يكتب دعاية انتخابية على أقمشة؛ تُعلَّق في الميادين والشوارع؛ كان المعلّم " علي هنداوي "، وكان رمزه الانتخابي " المركب "، ولأنه كان يمتلك نصف عربات الكارو والحناطير في بلدنا، فقد تكفل " العربجية " بالترويج له؛ بمجسم لمركب مثبت في مقدمة العربة، عليه اسم صاحبنا وصورته وهو بالجلباب البلدي رافعًا يمناه محييًّا الجميع، فجابت عربات الكارو الحارات والأزقة نهارًا، أما الحناطير فقد تكفلت بالميادين والشوارع نهارًا وليلاً.

كنا في العطلة الصيفية، مررت على كمال الخطاط، كان يزفر غيظًا وهو يشتكي لزبون من الأرياف :

– العربجي صاحب الكارو، منع الخير عني.

ببساطة رد الزبون :

– الأرزاق يا أسطى بيد الله.

استمر كمال وصدره يرتج مع كلماته :

– مختار وقاياتي ونعيم؛ صنعوا أشكالاً ووضعوها على عربات النقل وفي زوايا الشوارع.

يكمل وهو يخط على لوحة خشبية للزبون :

- نسوا أن القماش والزيت أرخص أشياء في الدعاية.

••••

تقلبت السنون، وها هو كمال وقد ازداد تورّما، يجلس أمام المحل في النهار، منقلب السحنة، لاعنًا محلات "السلك سكرين" التي جعلت لافتات محلات تشع ضوءًا ليلاً، وتتلألأ بألوان فسفورية نهارًا، ثم محلات الكومبيوتر.

وها هو كمال يجلس مستندا على طاولة خشبية صغيرة، أمام المحل، يكتب على لافتات الخشب وينتظر موسم الانتخابات لعل وعسى..

* * *

الرَّبطة بشلن

كان علي أن أذهب إليه في الصباح الباكر، كي أشتري كيلو " سجق "، قبل أن يحرِّك عربته الخشبية، نحو السوق. فاليوم الجمعة، موعد الذبح في السلخانة، وكما أخبر أبي، فهو يكون في السلخانة في آخر الليل، يشتري " السّقط " من الجزارين، ثم يحمله وينظفه ويقطعه في البيت، ثم يغدو به إلى السوق أول النهار.

بعد سهرة طويلة أمام مسرحية " نمرة ٢ يكسب"، ضحكتُ كثيرًا من تصنع " محمد عوض "، و" عبد المنعم مدبولي "؛ صحوتُ على يد أمي التي تُنغِص جنبي، " قم واشترِ... "، أفقت. كم كان وجهي منتفخًا في مرآة غرفتي، قبل أن أصك باب البيت خلفي.

أمامي عدد من الزبائن، فرحت أراقب المعلّم " حسين " وهو يقطِّع الكرشة، واللسان، والفشّة، ولحمة الرأس، ويزنها حسب الطلب. أتعجب، كيف أدخل عربته الخشبية هذا البيت الضيق ؟ لا يزيد عرض واجهة البيت من الخارج عن مترين شأنه شأن كل البيوت المجاورة له. تقول جدتي : (هم إخوة مع بعضهم، تقاسموا بيت أبيهم، وفضلوا أن يبني كل واحد بيته) انتبهت على صوت زوجته، امرأة كبيرة في السن، برزت خصلات شعرها من طرحتها السمراء. تقف أعلى السلم الداخلي في البيت، مراقبة مشهد البيع والشراء في ساحة البيت السفلية، تنادي ثم تكرر :

– يا حسين يا حسين... ما كل هذه الزحام يا حسين ؟

يتطلع إليها بوجهه المتغضن، ويردد :

– زبائن، زبائن.

– أنا نازلة لك.

" حريصة على القرش " هكذا يقولون، وهكذا رأيتها، تأخذ مجلسها على شلتة في الأرض، تراقب زوجها.

– هذا أول زبون يا حسين ؟

– سبقه ابن الرمادي، أخذ كيلو ونصف لحمة رأس.

يلقي في حجرها نقودًا ورقية، بعناية تعدها، وتدسها في صدرها. تنادي من جلستها على أبنائها :

– جهزوا الفطور.

تطل رؤوس عديدة من غرفتين فوق السلم، تهبط الابنة الكبيرة حاملة صينية عريضة، تقوم بعمل سندويشات، وتناول إخوتها الذين يجلسون على السلم، ويأكلون. " البيت ضيق، ولا مكان لتسعة عيال يتحلقون حول طبلية واحدة " هكذا تقول جدتي، وتردف : " ماذا تفعل امرأة حسين ؟ تأخذ غلّة شغل زوجها قبل أن يطيّره على الكيف ".

••••

أرهف أذنيّ لجدتي، في جلستها فوق السطح، ألتصق بها، وهي تحتويني بذراعها الحنون، تكمل حكايتها : حين يرجع حسين " أبو كرشة " من السوق، يلاقي امرأته على شلتتها في مدخل البيت، يلقي حصيلة اليوم في حجرها، ويحلف أنه أبقى خمسين قرشًا للمواصلات والمقهى.. يحلف ويحلف، وهي تقول له : يا رجل يا ناقص، عيب عليك، كم كيلو فشّة معك ؟ كم كيلو مصارين معك ؟ كم كيلو كرشة معك ؟.. يعد لها، وهي تصحح له، وتقول له : أكلت في بطنك ثلاثة جنيهات يا ضلالي.. يسبها، وهي تسبه، ثم تُخرج من سرواله الفلوس. هو في النهاية، رجل طيب، وحيلته قليلة.

••••

تنادي ابنتها الوسطى :

– يا ليلى، روحي اشتري أكل الخروف.

تلف البنت طرحتها، وتأخذ من أمها قروشًا، وتنظر ناحية الباب، تقول الأم وتكرر طلباتها، والابنة تنصت بآلية :

– هاتي نصف كيلو ذرة، وربطة جراوة.

تتحرك البنت، تقول إحدى الجارات التي جاءت لشراء كرشة:

– موسم البرسيم اقترب يا حاجة.

– يأكل منه الخروف، قبل العيد ؟ تسأل الحاجة.

–

– نعم، يأكل الربطة بشلن، أرخص من الجراوة والذرة. يرد الزوج.

جاءني صوت الخروف، تطلعت؛ كان محشورا تحت السلم، أتعجب كيف يتحملون رائحته ؟

تكرر الجارة مجاملة؛ على أمل أن يكرمها " حسين " في السعر :

– البرسيم كثير، وسيغرق السوق.

– يأكل منه الخروف، قبل العيد ؟ تسأل الحاجة.

– نعم، يأكل الربطة بشلن، أرخص من الجراوة والذرة. يرد الزوج.

• • • •

تضحك جدتي وهي تقول : (يربون الخروف للعيد، وكل سنة تحلف امرأة حسين أنها ستترك الثلث لعيالها، والباقي لله والأقارب، لكنها ترجع في كلامها لما يذبح " حسين " الخروف في البيت، وتشوف اللحمة متكتلة..)

ترد الجارة التي تسمع لها :

– والله امرأته لا تعرف الفاتحة. كنا في جنازة أم علي، زوجة الحاج زكي، وهمست لها : الناس تقرأ الفاتحة، اقرئي الفاتحة يا أم عربي. انتبهت لكلامي، فحركت شفتيها، ولم أسمع شيئا.

أشاحت جدتي بوجهها وهي تقول: الله أعلم يا أختي بما قالت.

• • • •

نظر لي المعلّم، قلت باضطراب:

- كيلو مصارين.. كيلو سجق .

يمد يده إلى جردل بجانبه، يخرج مصرانًا طويلاً، يضعه على الميزان، يقطّعه، يلفه في وريقات جرائد، يناولني، يشير إليّ لأعطي المرأة الفلوس، أناولها وهي تقول:

- سلّم على جدتك يا ولد، وقل لها : اليوم السجق غالٍ.

• • • •

بدأت الشمس تسخن الرؤوس، وهو يدفع عربته الخشبية، وعليها مربع من الحديد مثبت رأسيًا، وقد تدلت منه "خطافات" الحديد، وفي مخزن العربة يضع جرادل " السّقط ". وجهه متجهم مقطب، لا يلقي السلام ولا يرده.

* * *

الله عليك يا تمر حنة

منديل الحلو

صوت زمارته جمَّعنا من ركضنا في الحواري، التففنا حول عربته الخشبية التي أوقفها عند تقاطع حارتي " الشط وسوق السمك " ، يرفع عنقه بالزمارة منغّما ألحانا نحاسية؛ اعتادتها آذاننا من الإذاعة، ردد المارون مع لحنه أغنية :

" منديل الحلو.. يا منديله، على دقة قلبي بغنّيله "..

تتمايل الصبايا معه، امتدت الأكف إليه بالقروش الفضية، ومن ثم استقرت في علبة حديدية ذات غطاء مغلق على عربته الخشبية. يداه سريعتان في قطف الغزل الساخن من فوهة الماكينة المثبتة على سطح العربة، ثم يضعه في كيس بلاستيكي، ليقتطفه كف، تذوب خيوط الغزل في أفواهنا، فتتلون شفاهنا بمزيج لونيّ فاقع، ويسيل لعاب الصغار على ملابسهم احمرارًا.

لا يكفيني كيس واحد، فقررت أن أشتري ثلاثة أكياس، أمسكتها بقوة، خشية أن يختطفها ولد من مستأجري الدراجات إذا مرق بجانبي، متعمدًا التمايل يمنة ويسرة ليكون أكثر قربًا. ارتكنت بجسدي الصغير جانبًا، ملتصقًا بسور بيت عائلة القاضي، دوي الزمارة يدوي، فيتوافد الأولاد والبنات عليه. ألمح " محمود " بطوله الفارع، ولاسته اللامعة التي زانت جلبابه المكوي بعناية، بورقة مالية ارتفعت كفه الكبيرة فوق الكفوف الصغيرة،

فتناولها البائع متجاهلاً كفوف الصغار الممتدة، غير منصت لجلبتهم، وسرعان ما أعطاه أكياسًا عديدة، أخذها محمود وهو يتطلع عاليًا، تجاه شباك مغلق، يعلم أن عيونًا تترقبه من ثنايا خشب الشيش، إنها "صفاء"، يبدو أنهما متفقان على ذلك عند سماع الزمارة، دقائق وستدفع ضفلتي الشباك، ويبرز رأسها مغطى بطرحة سوداء، أبانت بياض وجهها، التقت العيون، فابتسما، تظاهرت الفتاة بسقي أصص الزرع المرصوصة على حافة الشباك، واستمرت النظرات..

نادى محمود البنت " غادة "، التي تسكن في بيتنا، فجاءته تلعق أصابعها المحمرة، أعطاها الأكياس كلها، وكان نصيبها كيسًا كبيرًا، عينه على الضلفتين اللتين أخفتا ببطء الوجه الأبيض وهما يُضمّان، ليعود الشباك مغلقًا بلونه الكابي.

يعلم محمود أن صفاء ستنتظر البنت على السلالم، لتأخذ منها الأكياس، والصغيرة لا تعلم أن ورقة مطوية اختبأت في أحد هذه الأكياس.

تراقصت الابتسامات على وجوه بعض العيال، لا مجال للهمس الآن، عليهم أن يغوصوا في الحواري، ثم يجلسون في حلقة مستظلين بجدار كبير، هامسين عن البنت "صفاء"، وغرام محمود بها، يحكون عن لقاءاتهما أعلى سطح البيت، عند حبال الغسيل، وقد رآه البعض متسللاً ساعة العصاري، مرتقيًا سلم بيتها الحجري، ولو سأله أحد السكان، سيخبره أنه صاعد إلى شقة خاله في الدور الثالث.

يبرع الولد " فتحي " في وصف اللقاء، رغم اعتراضي أن كل كلامه من الأفلام العربية " الأبيض والأسود ". لا ينتبه لي أحد من العيال المشغوفين بحكاية محمود عندما يظهر لصفاء من وسط حبال الغسيل، فتضرب صدرها وتبسمل، وتقول بدلع : " هو أنت يا محمود، ظننتك العفريت". يضحك الأولاد، ويواصل فتحي همسه، عن خروجهما عند السواقي، وجلوسهما على سور البحر، ومحمود يشتري لها " الجيلاتي " ويجلس بجوارها ثم يمسك يدها..

آه منك يا فتحي يا كلب، لسانك زالف مثل أبيك، يجلس وسط المقهى، مرتديًا جلبابًا فخمًا رمادي اللون، لا يبدله إلا مع تغير الفصول من شتاء إلى صيف، يتحلق الرجال حوله، يحكي لهم.. فيتغامزون ضاحكين، ويتبارون في إكرامه، بالشاي وأحجار الشيشة...وهكذا كل مساء.

••••

ابتسمتْ " غادة " لي وأنا أعطيها غزل البنات، تشجعتُ أكثر فتقدمت خطوة، لا أعرف ماذا أقول لها، فتحتْ هي الكيس، وتمتمتْ بثقة : شكرًا.

غرقتُ في عرقي، وانحبستْ الكلمات على لساني، نظرات البنت ثابتة وهي مستندة على الدرابزين الخشبي لسلالم بيتنا، وقد علا صوت التلفزيون من خلف أحد الأبواب، قالت :

- أروح أنا أشوف فيلم عبد العزيز محمود.

أعطتني ظهرها، ودخلت شقتها، وواصلت أنا صعودي على السلالم إلى شقتنا...

ليت لساني كان زالفًا مثل الولد فتحي.

* * *

يا ورد على فل وياسمين

(١)

أعلى سطح بيت " الرمادي "، في عرس ابنته " صفاء " على محمود حسانين من شارع الشط. في ساعة المغربية ، كنا؛ نحن الأولاد؛ أول من صعدوا، السطح فسيح، بلاطه قديم، وقد تراصت الكراسي الخشبية عليه، وهناك " كوشة " العروسين مزدانة بأطواق من أغصان الشجر.

لا تزال أم جمعة الخادمة تمسحه، وللمرة الثالثة كما تقول، صرخت في وجوهنا ألا نخطو بأقدامنا.. خلعنا نعالنا ووضعناها تحت الإبط، وقفزنا فوق " خيشتها " طائرين في فناء السطح، صرختْ عندما رأت آثار كعوبنا المتسخة بطين الشارع مطبوعةً على البلاط النظيف، طاردتنا بالمقشّة، كم كانت سريعة رغم بدانتها في الوصول إلينا، ولكننا كنا أسرع في الهروب من الباب الخلفي للسطح، ومنه إلى السلم الخشبي، ثم السلم الحجري. أمامنا عدة ساعات على بدء الفرح، فلنذهب لبيوتنا، ونلبس ثياب الخروج.

••••

أسعدُ كثيرًا عندما أرتدي بذلة الخروج بنّيّة اللون مع خطوط متماوجة، أتحسَّس ذراعي البذلة نصف الكم، وقد لمع حذائي في قدمي. تطلعت إلى العيال، كانوا يتبخترون بملابسهم، التي اشتروها في العيد، ولا تظهر إلا في الأعراس أو الزيارات.

أمام بيت " الحاج عبد الحميد الرمادي "، وقفنا بين أرجل الرجال المنتظرين لحظة وصول العروسين، فيما بدت وجوه النساء في الشرفات والشبابيك وخلف المشربيات. في مدخل الحارة، صلكّ مسامعنا بوق سيارة، سدَّت الحارة وهي تسير ببطء، الزغاريد تملأ الحارة، توقفتْ السيارة أمام البيت، سيارة كبيرة غامقة اللون، أشبه بالعلبة الكبيرة. نزلت العروس " صفاء "، يلمع وجهها تحت أضواء المصابيح الملونة التي غطت البيت، لم أصدق : أهذه صفاء التي كانت تبيع الفول في محل أبيها ؟ وتربط رأسها بإيشارب قطني ؟ تزوجت من " محمود " ابن بائع الكرشة، بعد قصة حب وخطابات، ومنها خطاب لبرنامج ما يطلبه المستمعون، أرسله محمود يطلب أغنية " فوق غصنك يا لمون " لفريد الأطرش، ساعتها همس العيال ضاحكين، وقالوا : " هو يحب يأكل الفول بالليمون ".

صعد العروسان السلالم الحجرية، وراءها أم صفاء حائرة بين البسملة والحوقلة من عين الحسود؛ وبين رفع صوتها مدويًّا بزغرودة تهز الحارة، وتغيظ " العزّال "، خاصة جيرانهم في البيت المواجه، فقد حفي " صبري " ابن العسكري عبد الحميد وراءها، كما تقول أمها، وهي تدعو نساء الحارة للفرح، ولكن القلب وما يريد.

تاهت عيني وسط الزحام، دقائق وجاء إخوة العروس وأقاربها حاملين الأكواب الزجاجية، ومعهم " شفاشق " مملوءة بالسائل المسكّر الأحمر، تدافع العيال وأنا آخرهم، هيهات أن يراني أخو " صفاء " وهو يصب الشربات في الأكواب، ويناولها أيدي الكبار الممتدة إليه. هززت بنطاله، التفت إليّ، شاهد الرجاء في عيني.

تسللتُ من بين الأرجل، وكوب الشربات بيدي، أرتشف بتلذذ، محافظًا على بذلتي أن تنال قطرة حمراء، فلا أنجو من عقاب أمي.

أمسكتْ " ثومة " أخت العروسة بالطبلة، وارتفعت الزغاريد والأغاني، وقف الجميع؛ سدوا المشهد أمام عيني، فارتقيتُ كرسيًّا خشبيًا، حضر أقارب العريس محمود من الريف؛ نسوة متشحات بعباءات، اهتزت مؤخراتهن الكبيرة بالرقص، الكل بلا استثناء، أتعجب: يزغردن وهن يخفين وجوههن بالطرح السوداء ! لا أعي مما يغنونه شيئا، جذب عدد من الشباب " محمود " العريس، الذي فكَّ لاسة جلبابه حول رقبته، وتحزم بها، وبدأ في الرقص، وهم يغنون له : " شنبه، يا شنبه، والله اتجوزت يا شنبه ".

••••

حملت السلالم رنين صاجات، وخشخشة "الرقّ"، وضربات الطبلة المتقنة، وصوت عذب يغني :

" عين الحسود فيها عود يا حلاوة

عريس قمر، وعروسته نقاوة

وإحنا الليلادي ، كدنا الأعادي

وعقبالهم كل حبايب العيلة.. "

صاح الأولاد : عم " صالح " وصل، عم " صالح " وصل.

تحولت الأنظار ناحيته، وهو يوزع نظراته على الحاضرين، ويتجه نحو العروسين حاملاً الرِّق، وخلفه " حنفي " بالطبلة، وعدد من الصبيان بالصاجات، اشتد التصفيق، وتمايلت النساء مع أغنية :

" يلّي ع الترعة، حوِّد ع المالح..

ياللى ع الترعة حوِّد ع المالح

وشوف الحلوه اللي عودها سارح

رجلى بتوجعنى

من إيه ؟

رجلي بتوجعني من مشي امبارح

ياللى ع الترعة حوِّد ع المالح

إيدى بتوجعني

من إيه ؟

إيدي بتوجعني من غسيل امبارح

ياللى ع الترعة حوِّد ع المالح

راسى بتوجعني

من إيه ؟

راسي بتوجعني من لف امبارح

ياللى ع الترعة حوِّد ع المالح

(يتوجع تابعه ويقول: آه آه)، فيكرِّر صالح :

" يلّي ع الترعة، حوّد ع المالح"

يضحك، وهو يبسط " رقّه " لجمع " النقوط "، تمتد الأيدي للجيوب والصدور ثم تلقي له، يعود مرة ثانية وهو يغني ويغمز بعينه:

" وادّحرج واجري.. يا رُمّان وتعال على حجري.. يا رمان

أنا حجري حنين.. يا رمّان ياخدك ويمــيّل.. يا رمان "

يصعد جانب العروسين، ويتوجه بالغناء للعريس :

والله لأغني لك يا عريس يا غالي

والله لأغني لك وأسهـر الليـالي

لأغديك بـوزة وأعشيك بـوزة

وحياة رب العزة أنت عندي غالي

والله لأغني لك يا عريس يا غالي

والله لأغني لك وأسهـر الليـالي

لأغديـك بدبيحة وأعشيك بدبيحة

عروستك مليحة وأنتَ عندى غالى

تقف إحدى الفتيات، تحزم وسطها بإتقان، وترقص على نغماته.. يلتقط صالح الطبلة من " حنفي "، ويضربها بفن؛ بنغمة " واحدة ونصف ".

(٢)

لم نصدِّق أعيننا، أهذه " أم سعدية " ؟ تلبس فستانًا جديدًا، وتدور على البيوت !

كنا في لعبنا في " خرابة بيت القاضي " في حارة بيت جدي، عندما رأيناها تطوف بالبيوت، طار الخبر؛ (اليوم حنّة ابنتها سعدية). هي ابنتها الوحيدة، وقد نجحت في إيقاع الأسطى "رجب" الأسترجي الذي افتتح دكانه الجديد في الحارة ولا يزال يدعو الله " يا هادي، يا رازق، ارزقنا بالحلال ".

كانت البنت تعد السندويشات والشاي وتحضرها له في الدكان مُطلقة وجهها بابتسامة عذبة تخفيها في طرحتها التي تتطاير مع الهواء. بعد فترة، يرجِّع الأسطى الصينية، ويطرق باب البيت، وهو يحلف أن لا لزوم لكل هذا التعب، وتمتد الوقفة وقتًا، يراهما كل سكان الحارة، الذين يرددون : " ربنا يتمم لكما يا حلوين "، مصدقين ما قالته أم سعدية أن الأسطى " تكلّم على البنت، وهي تشاور عقلها، وتأخذ رأي أعمامها ". والموضوع تمَّ، كما أرادت أم سعدية، وأحضر رجب أمه، واتفقوا على الزواج السريع، والإقامة في بيت أم سعدية، حتى يسهّلها الله من عنده.

تجمع العيال أمام بيت أم سعدية، في حين احتلت النساء الدور الثاني، وهن يغنين للعروس التي ارتدت فستانًا ورديًّا، ووضعت الحنّة في كفيها. جلست أم سعدية في حوش بيتها السفلي، ووضعت أمامها حلّة الحنة، فامتدت أيادينا، وهي تقول (الحنة بركة). وكان نصيبي امتلاء كفيّ بالحنة الرطبة، التي بقي لونها البني أيامًا في يدي.

" حنّة يا حنّة يا حنة... يا قطر الندى ..

يا خلخال حبيبي يا عيني، جلاب الهوى

يا خوفي لنينتك تدوّر عليك..

أحطك في شعري وأضفّر عليك

وأحطك في حاجبي واتخطط عليك..

وأحطك في خدودي واتحمرّ عليك

وأحطك في عيوني واتكحل عليك "

هذا صوت عم صالح، وحنفي والصبيان، وسرعان ما سكتت النساء، وأسرعن بالنزول للحارة، فيما جلس عم صالح على مصطبة، ورفع صوته مترنمًا، والعريس يقول لأم سعدية :

- الناس كلها تدعو عم صالح في ليلة العرس، وأنا دعوته في الحنّة والعرس.

ضربت أم سعدية صدره بكفها، وهي تقول:

- يا غالي، يا شهم، عقبال تمامك على البنيّة.

وقفنا حائرين، الحنة بأيدينا، وصالح يغني لنا، وقد أخذه الطرب، فراح يرقص، حاملاً الرّقّ، وجاء الرجال، وأسندوا ظهورهم، وهم يصغون لصوته الشجي، وهو يغني :

" البنت بيضا، البنت بيضا..

البنت بيضا..بيضا بيضا..وأنا أعمل إيه

يا ولدي يا ولدي أنا حبيت..وبنار الهوى اتكويت.

ضيّعت عمري على حبيبي..

ضيّعت عمري... وأنا اعمل إيه "

وحين طاف الصبي بالرق، امتلأ عن آخره، وصالح يواصل الغناء :

" اتمخطري يا حلوة يا بيضة يا وردة من جـوه جنينة

يا عود قرنفل يا عروسة والـورد ضــلل علـينـا

خطرت عليــنا ببدلتها والورد الأحمر حرس وجنتها

ما أحلى ليــلة حنّـتها صغـــيرة وكاملة المعنى "

(٣)

" سلامتها أم حسن، من العين والحسد، وسلامتك يا حسن.. "

فوجئنا بصوت الميكرفون يملأ الشارع بأغنية أحمد عدوية، هذا الذي ملأ الدنيا بشرائطه. يأتي الصوت من أمام بيت المعلم " صلاح محيي الدين ".. تركنا لهونا، وتجمعنا أمام البيت، كان جهاز التسجيل موضوعًا على طاولة، ويجلس المعلم صلاح وصبيانه، الليلة فرح ابنه، على ابنة عمه. تتالت أغاني عدوية :

" السح ادح امبو، ادي الواد لابوه،

يا عيني الواد بيعيط، الواد عطشان اسقوه "

اشتد صوت الميكروفون، وكما تهامس الناس: (المعلم صلاح يغيظ المعلم سيد العيسوي، لأنه رفض أن يناسبه في ابنته). لم نغير ملابسنا، كان العشاء في وسط الشارع، مناضد طويلة واللحم أكوام، والطباخون يحضرون الصحون، ويحلفون أن يأكل كل من يسير في الشارع، ونالتنا سندويتشات اللحم، ومعها حلويات وشيكولاتة.

حين جاء عم صالح وحنفي وأتباعهما، التفَّ الناس حولهم، أخرج المعلم صلاح ورقة مالية حمراء اللون، قال لي الولد " رضا " إنها عشرون جنيهًا. فاندفع صالح يلعب بالطبلة وسط الشارع، يرقص، ويغني.

اشتد الليل في ظلمته، وتحوَّل الشارع إلى نهار بحبال اللمبات الملونة المعلقة بين البيوت. أصرَّ المعلم أن يكون الفرح في الشارع، والناس كلها تتفرج وتشوف، وتحلف أنها ليلة لن تتكرر.

يسير المعلم بين المعازيم الذين اصطفت كراسيهم لتسد الشارع، وقد نصب مسرحًا خشبيًا، راح صالح يغني عليه، فيما كانت زجاجات " البيرة " تتنقل بين المعازيم، وغاب الشربات الأحمر.

– شوفوا المفاجأة الكبيرة..

– خيرًا يا معلم صلاح ؟

– أحلى راقصة..

تصفيق حاد، وزغاريد النساء، واندفعت راقصة، نصف عارية، غطت المشهد على صالح وفرقته. وتبعها رجل حاملاً " أكورديون "، وآخر طبَّال. حاول صالح أن يطبِّل لها، ولكن الراقصة أشارت له، وراحت تتمايل مع الطبال الذي كان يقلّب النغمة مع عزف الأكورديون المتنقل بين نغمات فريد الأطرش وعبد الوهاب، وموسيقى سهير زكي.

انسحب صالح، وخلفه حنفي... وتمايلت الرؤوس، وتقدم صبيان المعلم لتوزيع سندويشات الكباب ومعها أكواب البيرة.. ناداه المعلم صلاح وهمس في أذنه، ضحك صالح، وهو يردد : إن شاء الله يا غالي. وغنى في طريقه :

يا ليلة الدخلة يا سيدي   خد السلام من إيدك لإيدي

يا ليلة الدخلة ولقياها   ولقا البنات والكل معاها

وقال سمعوني لغاها   ومسكوني جلبي بايدي

يا ليلة الدخلة في الحاصل   جعلني عريانة واصل

• • • •

صباح اليوم التالي، كان صالح واقفًا أمام عمارة المعلم صلاح، وحنفي خلفه، تعلو صاجات الرق، يبرز المعلم وأخوه وزوجته، يرتقون السلّم إلى شقة العريس، " صباحية مباركة يا عريس "، غناء صالح شجي، تردّد صداه في مدار السلم، برز العريس من باب الشقة، فلهج صالح مشجيًا :

طالع من الحمام وأنا شفته

وطاطيت على خد العريس وبسته

وربطت له مَيْتين على محرمته

وقلت له أنا يا عريس جشلانه (مفلسه)

طالع من الحمام وناديته

وطاطيت على خد العريس حبيته

وكبشت له من الدهب وديته

وقلت له أنا يا عريس جشلانه

(٤)

طاردونا بالعصي، أبناء سيد العيسوي الجزار، نصبوا مسرحًا كبيرًا في قطعة أرض تتوسطها نخلة عقيمة من التمر، أمام بيته الكبير. كان الطعام في غرف البيت، فقط للضيوف الكبار من المعلّمين ورجال الحي. خُطبِت ابنة العيسوي لابن " البحيري " تاجر العجول، وتناقل الناس أن المحافظ ومدير الأمن مدعوان، وإن لم يحضرا بعد ذلك، وتناقلوا أيضًا أن الفرح سيحييه ولأول مرة في البلد؛ عوالم من القاهرة، لذا حضرنا، وظللنا بعيدًا، بمنأى عن عصي أبناء سيد العيسوي الذين ارتدوا جلابيب جديدة مكوية بعناية.

دخلت الشارع سيارة ميكروباس، عليها الأجهزة الموسيقية في صناديق. توقفت أمام البيت، وكان المعلم سيد في المدخل، ارتفع صوته: " تتعشون أحلى عشاء، وبعدها تكون السهرة للصبح ".

• • • •

بجوار الكراسي الخشبية التي ملأت الساحة، كانت الطاولات التي عليها زجاجات البيرة، وأيضًا أطباق المَزَّة. على المسرح: راقصات عاريات الصدور والفخوذ، وخلفهن الفرقة بآلاتها الموسيقية. ارتفع الدخان الأزرق، وكانت مفاجأة الفرح بعدما تأكدوا من أن مخبري الشرطة الحاضرين " تسلطنوا " بالبيرة. وزَّع لفائف الحشيش المعلم سيد بنفسه، وهو يقول: اشهدوا، واحكوا، لكل البلد، فرح بنتي لن يتكرر مثله.

على استحياء، تقدّم صالح وحنفي.. بطبلة ضعيفة الوقع، ورق مبحوح الصوت. ابتسامات استهزاء من الحاضرين.

- ارجع يا صالح، راحت عليك الليلة.

- .. " وكمان " كل ليلة يا صالح.

اقتربوا من المعلم سيد، الذي تصنع ابتسامة وأخرج بعض الجنيهات، وهو يقول:

- اصعدوا، العشاء في الدور الثاني.

انسحب صالح.. غناؤه مبعثر بين الرؤوس المسطولة، والدخان المتصاعد.

(٥)

الشيب ملأ رأسه، وهو يطوف في الصباح في سوق الخضار حاملاً " الطار "، وخلفه حنفي يهزّ صاجات الرّق، يتنقل بين المحلات، يعرفه التجّار والباعة، كبار السن، الذين يجلسون دائمًا في الأعراس خارج الصالات، بعيدين عن ضجيج " الدي جي "، والفتيات اللائي يرقصن بعصبية، يغني صالح بشجن:

يا ورد على فل وياسمين

الله عليك يا تمر حنة

قرّب هنا، ده عندنا،

خد وردة يا بيه، خدي فلة يا هانم

* * *

الشاشة الفضية

(١)

الليل والصيف، تتدفق حكاياته مع النسمات الرطبة التي تلثم جباهنا، ونحن متحلقون حوله، وهو جالس على مصطبة بيتهم، إنه الولد " طارق "، الذي أشعر بكبره سنوات عني، بحكم طوله المفرط قياسًا بقِصري؛ ومعرفته عن كل شيء، أو هكذا تراءى لي، نحن المطرقون إليه وهو يحكي عن الأفلام العربية والأجنبية، عن " بروس لي " المقاتل الصيني، بطل العالم في " الكونغ فو "، وما يفعله من أعاجيب وكيف يطير عاليًا ملامسًا أغصان الأشجار ثم يهبط بثقله على خصومه فيكسر عظامهم، وكيف تكون قبضاته مفجِّرةً للدم من الصدور والبطون، إنه المقاتل الشرس، الذي يواجه الأعداء منفردًا، ويهزمهم وحده، ثم يفوز بقبلات حبيبته، مثّل طارق بيديه ورجليه ضربات البطل، وسقط أرضًا وهو يحاول أن يطير عاليًا، أعجبنا به، فقد كان جسمه رشيقًا وهو يقلّد حركات البطل الصيني، هتف:

– أنا ألعب كاراتيه يا عيال، وسأتعلم الكونغو فو.

••••

تصلبت آذاننا ونحن نسمع أحداث فيلم " القطار الملعون " وتصادم القطارات، وهذا الملعون يمرق من بينها، متنقلا بين القضبان. نقارن بين ما يقول؛ مستذكرين قطارات الدرجة الثالثة التي تشق قرى بلدتنا، وتتلوى بين الحقول، ثم يغطيها السحاب، حكى الفيلم " عصام " صاحب أخي، وكان قد روى لنا عن سفره بالقطار بمفرده مرات؛ إلى قرى محافظتنا، ومرة تعلق بباب القطار إلى القاهرة هاربًا من عيني "الكمساري " حتى وصل وتجوَّل في ميدان رمسيس إلى موعد القطار التالي ثم عاد مختبئًا بين الحقائب كما قال.

وقصَّ آخرون علينا ما لا نشاهده في أفلام التلفزيون الأبيض والأسود ذي القناتين. لم نكن نصدق أن هناك أفلامًا لإسماعيل ياسين لا تعرض في التلفزيون، ضحكنا كثيرًا على فيلم " في متحف الشمع "، وما فيه من أحداث رعب أرجفت عبد الفتاح القصري، وهدَّلت شفتي إسماعيل ياسين. أما فيلم أنور وجدي " ريا وسكينة "، فقد حكاه أبي مرات لي، فلم أشتقْ لمتابعة حكي " طارق " عنه.

غاظني كثيرًا وأنا ذو السنوات التسع أن ينال الولد "حسين" أسبقية دخول السينما قبلي، فاشتعل قلبي لأنه يماثلني في السن، ولأنه تعمَّد مضايقتي برفع أنفه وهو ينظر إليَّ بين عيال الحارة الملتفين حوله والمنصتين لما يقوله عن أحداث فيلم أمريكي شاهدَه مع أخيه في السينما، وشهق الأولاد وهو يمثِّل بيديه أحداث الفيلم : الرصاص والطائرات.. استمعتُ إليه محترقًا، وعدتُ حزينًا، ولم تفلح محاولات أبي لجذبي لمشاهدة فيلم السهرة الذي جاء على حظي فيلم " أنا بنت ناس" العائد إلى سني الأربعينيات، وقد شاهدته مرارًا، وحفظت حركات فاتن حمامة، وأحزنتني بكائيته الطويلة.

(٢)

" هذه المرة سأتشبث به " ... هكذا قرَّرتُ وأنا أشاهد أخي الأكبر في طريقه للسينما مع أصدقائه، لستُ صغيرًا. حاولتْ أمي أن تثنيني مؤكدة تفاهة الأفلام، وأنني سآخذ ثمن التذكرة، وعليَّ أن أفعل به ما أشاء : أشرب مياه غازية مثلجة، وأجلس عند السواقي، خاصة أني أبي منح كلاً منا ثلاثة قروش إضافية غير ثمن التذكرة، وقد جعل أخي المبلغ كله في جيبه خوفًا عليه، كانت التذكرة بستة قروش.

في الطريق، أطرقتُ لحوار أخي مع صديقه " عصام " عن ازدحام سينما عبد الحميد، لذا خرجنا مبكرًا قبل الموعد بساعتين، فاليوم يُعرض فيلم " الأبطال " لأحمد رمزي، وهو أول فيلم كاراتيه مصري؛ كما ذكر لي أخي؛ الذي شاهده مرةً من قبل، ولم أفهم حكايته منه، وضنَّ طارق علينا بحكايته، وتباهى بها، وساعتها ثار عيال الحارة عليه، وسخر منه أخي قائلاً :

– الفيلم كله ضربٌ، وصعب أن تحكيه.. أنا شفته، فيلم رهيب.

– كذاب.. كذاب.

وهكذا، كان الأمر سجالاً، وحلف الجميع أن يشاهدوا الفيلم إذا عُرِض ثانية في السينما.

ولأن الزحام خانق أمام السينما فقد أوقفاني – أخي وعصام – بعيدًا، وحاول عصام أن يصل إلى شباك التذاكر، ولكنه لم يستطع النفاذ من بين الأجساد المتلاحمة، على الشباك الصغير. ولم يكن أمامنا بدٌ من أن نشتري التذاكر من الشباب الفارعين الذين يبيعون التذكرة ذات القروش الستة بعشرة قروش. نظر أخي لي، وهمس :

– معنا ثمانية عشر قرشًا، والمطلوب عشرون.

تقدَّم عصام إلى الرجل ذي الشعر البارز من صدره، والقميص المفتوح إلى منتصفه، وقد ربط طرفيه بعقدة محكمة، وطلب منه ثلاث تذاكر وأعطاه النقود مطوية، ألقاها الرجل في عبِّه (فتحة صدره)، دون استفهام، واستقرت التذاكر الثلاث في أيدينا، قال أخي ونحن نتجه إلى باب السينما :

– خسرنا اليوم اللب والعصير.

أجابه عصام وهو يشدني من يدي لأدخل هذا العالم الغريب عبر باب حديدي كبير؛ مفتوحة ضلفة واحدة منه، ورجل أشيب خلف الضلفة المغلقة، يعدّ التذاكر ثم يمزقها نصفين، ومن ثم ولجنا في ظلام، اعتادته عيوننا سريعًا، وبحثنا كثيرًا عن مقاعد، لنستقر في الخلف. المقاعد خشبية طويلة ذات مساند حديدية. اتخذنا مجلسنا متجاورين، آلمتني صلابة خشب المقعد.

عليَّ أن أصغي لسخرية عصام من درجة " الترسو " التي دخلنا فيها، وتطلعتُ إلى حيث أشار، إلى الوراء مباشرة؛ درجة " الصالة "، فيها عائلات ورجال كبار، أما درجة "كرسي اللوج " فهي مقصورات خاصة غالية الثمن، لم أرها ولكنني استمعت لوصفها من أخي.

ما أشد رائحة السجائر ! كانت سحب الدخان تتصاعد، من أولاد في سني وأكبر مني. ميّزت عيناي شاشة العرض البيضاء الكبيرة، مصنوعة من قماش يشبه قماش " الدبلان "، عبر مكبر صوت موضوع في إحدى زوايا السينما، جاءني صوت " عبد الحليم " متحشرجًا بأغنية " تعال.. تعال ".

انطفأت المصابيح الصفراء الجانبية، فغرقت من حولي الوجوه والرؤوس في الظلام الدامس، وتوهجت السجائر المشتعلة، مال أخي عليَّ هامسًا :

- احذر أعقاب السجائر.

لم أعِ ما قال، إلا بعد مشاهدتي لعقب سيجارة مشتعل طائر من الخلف إلى الأمام، وسرعان ما ارتفعت شتائم، ثم إلقاء عشوائي لأعقاب قاربت على الانطفاء، ومن ثم هدوء مع تراقص الصور على الشاشة بصخبٍ عالٍ، ثم اعتلت رؤوسنا أضواء مصوبة على الشاشة، تأتي من طاقات من أقصى الخلف، وسرعان ما تتابعت لقطات لأفلام أجنبية: ضرب باللكمات والأرجل، وسيارات تطير وتسقط منقلبة محترقة، وأشخاص يتعلقون في طائرات عمودية، ملء الشاشة، أرتعب أن تصيبني طلقات الرصاص، أو أن تدعكني السيارات المتقلبة.

بدأ الفيلم العربي، " ٣٠ يوم في السجن "، فريد شوقي، وعزت أبو بكر، أبيض وأسود، ضحكت على محمد رضا، وثلاثي المسرح وهم يغنون ويرقصون، وكان مشهد تكسير عرق الخشب المتين على يد فريد شوقي وهو يقول عاليًا : "يا عدوي"، ثم يتوقف ويطلب المزيد من التشجيع قائلاً : "صفقة من الجدعان"، والغريب أن كل عيال الترسو حولنا صقّقوا عاليًا، ثم تحطم العرق، فأعادوا التصفيق.

استراحة بإضاءة المصابيح الصفراء، وعلا الصفير، وبعض السباب، وتطايرت أعقاب سجائر على الشاشة ذاتها.

الفيلم الأجنبي لملاكم أمريكي عملاق الجسم، ينادي من فوق حلبة الملاكمة حبيبته " أدريان "، ويستطيع أن يقهر كل متحديه من كافة الدول، في بطولات عالمية، حتى يجد نفسه في مواجهة منافسه من الاتحاد السوفيتي في " واشنطن "، حيث ينبهر السوفيتيّ من حضارة أمريكا، وناطحات السحاب بها، وانفتاح أهلها، وحيويتهم، وتنتهي المباراة بالتعادل بين الملاكمين، وتقرر لجنة التحكيم أن تكون المباراة الثانية في موسكو، حيث يسافر الأمريكي، ويفاجأ بـ " روسيا "، شوارع قديمة مغطاة بالجليد، ووجوه كالحة، وعيون خائفة. وفي يوم المباراة، يحضر زعماء السوفييت، وهم كما نراهم : كبار السن، متجمدي الوجوه، محنطي الملامح، كأنهم من زمن آخر، متوقعين فوز ملاكمهم، لأنه على أرضه، وسط جمهوره، وتحدث المفاجأة، أن يفوز الأمريكي، بعدما قاوم الروسي كثيرًا، وتلطخ وجهه بالدماء، ولحظة إعلان النصر، يقول والدماء تتقاطر من شدقيه : (ها أنا يا أدريان، قهرت خصمي الروسي، وأعلن حبي الدائم لكِ أيتها الجميلة، وشوقي إليكِ، لنعيش في حب مع ابننا). ثم يتوّجه إلى زعماء السوفييت قائلاً : (أنتم تحبسون شعوبكم، وتناصبوننا العداء ونحن ندعوكم للسلام والحرية).

وساعتها يقف الزعماء منبهرين.. وإن ظلت ملامحهم جامدة.

سقط عقب سيجارة على رأسي.. صرختُ، وطالبتُ أخي وصديقه بالخروج، فأسرعا معي، بعدما نالهم بعض السباب مجهول المصدر، إثر اعتراضهما باليد.

(٣)

كان جدي على سريره النحاسي وأنا بجواره، وقد أشعل في موقد الحطب الفخاري نارًا، نثرت دفئها في جنبات الغرفة، وإن أبقى ضلفة من شباك الغرفة مفتوحة، فلسعت وجنتي الساخنتين نسماتٌ باردة. حكيت لجدي عن ذهابي للسينما وما حدث فيها، ضحك حتى بانت نواجذه المهترئة، ورفع عينيه المحمرتين إلى سقف الحجرة العالي، المزدحم بالعروق الخشبية، وهو يجيب عن سؤالي : لماذا أسموها سينما عبد الحميد ؟ وأخبرته أن كل من سألتهم لم يعرفوا. حكى جدي عن عبد الحميد صاحب السينما، كان قصيرًا، يلبس معطفًا أصفر صيفًا وشتاء، يبيع ملابس من سوق الكانتو في شارع البحر. كانت السينما والقهوة ومخزن الخيّاميّة (فِراشة الأفراح والعزاء)، يملكها محمد المراكبي. قلت بسرعة : لايزال محل المراكبي للفِراشة موجودًا. واصل حديثه وعيناه مسلطتان عاليًا:

– عبد الحميد كان ماهرًا في القمار، ويتشطّر على التجار وأعيان الأرياف، وهو ابن نكتة، أما المراكبي فكان طيبًا.. قُلْ عبيطًا، عرف طريق الكأس في كبره، وتصادق مع عبد الحميد، و" القعدة " عند المراكبي مرة في محل الفراشة، ومرة في مقهاه الملاصق للمحل، أما أرض السينما فكانت مخزنًا كبيرًا للغلة والقطن. وذات ليلة، حكى الناس كلهم عنها، المراكبي وعبد الحميد، الخمرة لعبت برأس الأول، ولم تحرّك شعرة في رأس الثاني، والورق ولّع، كسب المراكبي في البداية، وسخّن عبد الحميد اللعب، وبدأ المراكبي في الخسارة، وركبه العناد لتعويضها، حتى وقّع على ورقة تنازل لعبد الحميد عن مخزن الغلة، ثم المقهى.

أتساءل :

– وهل سكت المراكبي ؟ وماذا عن عبد الحميد ؟

يواصل جدي :

– أصبح عبد الحميد في ليلة، صاحب مقهى في وسط البلد، وكان ذكيًا، بنى فوق المقهى " لوكاندة " لا زالت ليومنا هذا، فصار الناس ينزلون من محطة القطار يستريحون في المقهى، والمسافرون المغتربون يصعدون للوكاندة.

– وماذا عن السينما ؟ السينما يا جدي.

ابتسامة الجد لا تفارقه، وهكذا درج وهو يستعيد ذكرياته :

– عبد الحميد كان جِنًّا، يسافر القاهرة، ويدخل السينما والمسرح، وهو ليس من الريف، وإيجار المخزن قليل، فقرَّر إنشاء السينما، في الصيف مسرح مفتوح ومكشوف تعرض فيها فرقة " عاكف " لمَّا تأتي للبلد، وفي الشتاء يغطيها، ويضع الشاشة البيضاء، ويعرض فيها أفلام السينما.. أفلام الدرجة الثالثة..

انتبهت على آخر كلماته :

– الدرجة الثالثة ؟!..

– نعم يا بني، تأتي الأفلام القديمة، وأفلام أمريكا.. بعد أن تهترئ النسخ في القاهرة والمحافظات، تأتي بتراب الفلوس عند عبد الحميد.

– هل دخلت السينما يا جدي ؟

تثاءب جدي، وقد غفت نار الحطب، وهمس :

ـ كلما قابلت عبد الحميد، أقول له لن أدخل سينما كسبتها من القمار، فيرد عليّ ويقول: الدنيا لعبة قمار، والشاطر يقامر للنهاية.

(٤)

قرَّرنا أن تكون لعبتنا في ليلة ربيعية لعبة " الممثلين "، أعرفها جيدًا، وطالما خرجت مبكرًا منها لعدم حفظي أسماء الممثلين، لذا يكون نصيبي أن أنحني بوضع الركوع، والعيال يقفزون فوقي، مرددين أسماء الممثلين. قرَّرتُ أن أصمد، وإن كان التحدي اليوم كبيرًا، فقد اتفقوا على أن يذكر المنحني الفيلم، ويذكر القافز بطله.. كنتُ الأقصر قامة، وإن بدت مهارتي في تجاوز الولد المنحني رغم تبدّله مرات.. تعجب كثيرون فحتى الآن قفزتُ كثيرًا، ولم أخطئ في ذكر ممثل ولا بطل، كنت قد عشقت السينما، وأدمنت أفلام التلفزيون في ظهر الأحد والخميس، وفي سهرة الثلاثاء والجمعة.

• • • •

اللعبة الثانية كانت حركات صامتة، بين ولد يؤديها دون صوت، وآخر يحاول أن يعرف كنه الفيلم كي يقول اسمه..

سقطتُ عندما فاجأني الولد " أيمن " الكبير، بإشارات لم أفهمها، أشار إلى صراخ، وخلع ملابس، وضرب على القفا، وتعليق من الأرجل.. لم أعِ، فضحك وضحكوا من كانوا حولي في الدائرة..

كان فيلم " الكرنك "، حكوا كثيرًا عن سعاد حسني وما فعله المخبر معها في السجن.. لم أره في التلفزيون، واصلوا ضحكهم وهم يقولون: ما حكيناه لن تراه في التلفزيون.

(٥)

مضت السنون، وكان لها أن تمضي.. وها أنا على عتبة الشباب، كانت الأيام قد باعدتني عن السينما، واكتفيتُ بالمسلسلات التلفزيونية، وغرقتُ في الكتب.

جاءني " محمد " صديقي، على طاولة المدرسة، وفي جولاتي المسائية على شارع البحر، حكى كثيرًا عن أميتاب باتشان والأفلام الهندية، أجبته أنني تأففت من سينما عبد الحميد، ومقاعدها المحطمة، ضحك ودعاني إلى سينما ثانية، كنت أعرف أنها مغلقة منذ سنوات لخلافات بين ورثتها، كان يوم الخميس، تناولت الغداء واقفًا بعد عودتي من المدرسة الثانوية، فقد جاءني صوت محمد يناديني.

– سنحضر من بداية العرض، من الرابعة عصرًا.

هكذا قال لي، وهو يشتري سندويشات من مطعم، وأخبرني وهو يأكل بشراهة أنه لا يتغدى في بيتهم الخميس أبدًا، إما أن يذهب لمباراة كرم القدم في الساحة أو للسينما.. أحببتُ محمدًا لتلقائيته وصراحته معي، وشدة خجله وهو الوحيد بين أختين ووالدين؛ كلهم يتمنون إسعاده.

وصلنا السينما، من النظرة الأولى عرفت أنها مختلفة، كيف لم أفكر فيها وقد مررت مئات المرات أمام مبناها المغلق ؟

مررنا من باب جانبي بعد قطع التذاكر، أسترجع مخزون حواسي لسينما عبد الحميد، هذا بناء مختلف، صعدنا سلالم ملتوية، حتى وجدت نفسي في مدرج من المقاعد، الشاشة أسفل ناظري، وأنا معلق في مقعد خشبي وثير نوعًا ما. انسكب الضوء من فوهة علوية، حمل عناوين أفلام ثلاثة ستعرض اليوم، شربنا ما بأيدينا من عصير، وبدأنا في اللب، وبدأت الأفلام... اهتززت عندما جاء مشهد في الفيلم الهندي قبلة طويلة بين البطلين، ثم...

وجاء فيلم " حمام الملاطيلي "، فوجئت به، حكى زملاء المدرسة والحي عنه، تتابعت المشاهد الساخنة بين شمس البارودي ومحمد العربي وزوجة صاحب الحمام، ارتفعت بنا أكثر من تخيّلنا. ضاق صدري كثيرًا، ونفخت في الهواء طويلاً، همستُ لمحمد وقد لزم الصمت منذ مشاهدتنا الفيلم :

– أهذا قاع المجتمع أم رأسه ؟!

– القاع طبعًا.

– ما رأيناه في الفيلم حواري ودعارة ومثقفين وسياسيين سابقين وأعيان وفيلات وقصور.

على ضوء مصباح الشارع الأبيض، مشينا متجاورين، ثمة شرخ في قلوبنا فاللحم البشري مهدر بالمال، والنفوس مذلولة بالشهوة، والقلوب مخترقة بالحرمان، ورأيت حُبًّا مختلفًا يتجاوز اللقاءات فوق الأسطح بين حبال الغسيل، والجلوس على الكورنيش، والسير على شاطئ البحر.

(٦)

أبعدتني السنون عن مدينتي.. وها هي تعيدني.

أعلى سور سينما عبد الحميد بقايا ملصقات لأفلام قديمة؛ فيلم تركي لفتيات شقراوات، وبجانبه ملصق لأحد أفلام "بروس لي"؛ أُعيد عرضه عشرات المرات، بشريط مهترئ لم يعد لمنتجيه.. وهذا عنوان فيلم " فتحية والمرسيدس" أحد أفلام المقاولات.

الباب الحديدي مفتوح على مصراعيه، وثمة أجولة مكومة، وكراتين متراصة، تغص بها ساحة السينما.. همستُ لابني وأنا أروي له :

- إنه عود على بدء.

أخذتني أقدامي للسينما الثانية، ضحكت لأنني دومًا أنسى اسمها، رغم مروري الدائم عليها، الآن تذكرت، "سينما الثقافة". بدت أرضًا فضاء، مثبتة فيها لافتة خشبية كبيرة، مدون عليها للبيع لورثة بعينهم، تمعنت في أسمائهم المدونة، كلهم من عائلة واحدة، تعود إلى بيت "البسطامي" بيتهم كبير، مزيج من الأسوار العريضة والعروق الخشبية المتراصة، يطل على ناصيتين في حيّنا. كلهم تخطوا الستين، ودومًا تباهوا أمام الناس بملك لديهم يُقدَّر بالملايين، وإن كتموا عنوانه.

• • • •

ها هي حارتنا، وها هو موضع المصطبة الحجرية التي احتوت حكاياتنا وألعابنا وأحلامنا، وهذا هو طارق يطير ضاربًا ثلاثة من أعدائه بركلاته وقبضاته، وذاك " حسين " يبتسم بصفاء ناظرًا نحوي، أما عصام فهو مُصِرّ على الوقوف، عندما يسمع صافرة القطار الذي يخترق مدينتنا، وبدا جدي يحكم لفّ ملفعته الصوفية، وقد انطفأت نار المجمرة، وتسلل ضوء القمر من فتحة النافذة.

* * *

شوكولاتة وأنـّات

ما أشد برودة غرفتنا !..

اندسستُ تحت اللحاف السميك، ولمبة الغرفة الصفراء تغزو بصري، إنها ليلة الجمعة، فغدًا لن أذهب للمدرسة، وسأستيقظ متأخرًا، قبل الأذان الأول للجمعة.

أحب يوم الخميس من أوّله، فهو خمس حصص لا ست، منهما حصتان للزراعة، وهذا يعني أن يسير تلاميذ فصلنا في طابور متتابعين خلف معلم مادة الزراعة، إلى ما يُسمى حديقة المدرسة، حيث نتراص جالسين متجاورين؛ على بقايا أعشاب، نتطلع إلى حظيرة دجاج خاوية منذ عقود، سمعنا أنها كانت مشروعًا لإنتاج الدواجن في المدرسة بإشراف المعلمين وخدمة التلاميذ، وتلاشى المشروع، وتبقت الحظيرة عهدة على إدارة المدرسة، وسكنها - بالتبعة - الفئرانُ وهوام الأرض. نوزّع اللبّ السّوريّ (لبّ العبّاد) فيما بيننا، ونتشارك في لقيمات مجتزأة من سندويشات، بعضها نحملها معنا، والبعض الآخر نأخذه بالتوسل أو التسوّل. نقضي وقتنا بين لعبة " السيجا " المرسومة على التراب، وحكايات أفلام السينما ومسلسلات التلفزيون، يبرع زميلي هاني في حكايات الأفلام، وإن كنا شاهدناها من قبل، إنه يفصّل في مشاهد العراك والضحك وأيضًا الغرام.

أعود إلى دفء اللحاف وليلة الجمعة، وأخي يتدثر بالمزيد من حوافه، وأعيننا متصلبة على الركن الأيمن المقابل في الغرفة، حيث يستقر التلفزيون العتيق على طاولة مستديرة، نحرِّك مفتاح القنوات، خياراتنا منحصرة – في حقبة ما قبل الريموت والفضائيات – بين القناة الأولى وما تبثه من برامج ودراما بالعربية، والقناة الثانية والغالب عليها لغات أجنبية، نميزِّها بالترجمة المطبوعة على شاشتها، أحيانًا نتحمَّس لبعض أفلامها؛ خاصة أفلام رعاة البقر الأمريكية، فما أسرع ما تنطلق الرصاصات وتنفجر الجمجمات ! وتزوغ أبصارنا في لقطات الكر والفر بين المحتلين الأوروبيين، والهنود الحمر، الأولون ببنادقهم سريعة الطلقات، والآخرون برماحهم وسهامهم وأجسادهم العارية التي تتساقط سريعًا أمام الرصاص.

ننتظر الفيلم العربي، وقد أعلنوا الليلة عن فيلم " عمر المختار "، موعده العاشرة ليلاً، ولأنها كانت المرة الأولى التي أشاهد هذا الفيلم بعدما سمعت حكايته مرات من عيال الحارة والمدرسة، فكان عليَّ دفع النعاس , وإن دغدغ دفء اللحاف حواسي، ونال غفوة مني.

كعادة القناة الأولى، أتوقع أن تسبق الفيلم إعلانات، فأغرقت عينيّ صورٌ متتابعة، لإعلانات حفظتها منذ سنواتي الأولى، مع صوت " أحمد عدوية " – وكان لا يزال في بداياته– صوته حاد قوي وهو يغني " خضر العطار.. في الصاغة والحسين "، وثمة فتيات يهززن أذرعتهن معه ويرددن "عارفين.. طبعًا عارفين"، والصورة تجول في المحل الحافل بألوان التوابل والعطور؛ الفلفل الأسود والكمون والشيح والعصفر والكركم وحبة البركة، أعرف ملمسها ورائحتها وألوانها، فكم مرة صاحبت جدتي للعطار ! ولا تفتأ في سيرها أن توصيني بشرب الشيح على الريق حتى يتكاثر الدم في وجهي ويبدو محمرًا دائمًا.

الإعلان التالي عن شكولاتة " كوفرتينا "، رسوم متحركة، يقف العريس تحت الشباك، والعروس من الشرفة تسأله عن الشبكة والشقة والأثاث، فينفي أن يكون شيء مُعدًا، فتلقي عليه قطعة من أصص الزهور بالشرفة، وعندما تسأله عن الشكولاتة؛ يجيب بالموافقة مؤكدًا أنها من " كوفرتينا "، فتهتف العروس الكرتونية: بينا ع المأذون. شاهدت هذه الشكولاتة في فترينة محل " شيحة " للحلويات، كان الثمن عدة جنيهات على علبتها، تخيلت طعمها المفترض مقارنة مع الشكولاتة التي أشتريها من البقالة بقرشين؛ التي تقترب نكهتها من الحلاوة الطحينية، أو أستحضر مذاق قطع الشوكلاتة التي أنالها في الأفراح أو حملات الدعاية الانتخابية للمجلس المحلي أو مجلس الشعب.

حقيقة، لا أنسى إعلان " شوكو أب "، شكولاتة سائلة في علبة بلاستيكية، تؤكل بالمعلقة أو توضع على الخبز. والأطفال يتناولونها فينطلقون فرحين فاردين أذرعتهم في الهواء. اختفى مشهدها من ذاكرتي شهورًا مع انقطاع الإعلان، حتى رأيتها في محل ألبان بشارع الرملة، فاستحضرتْ ذاكرتي الشوكلاتة المذابة، سألت عن ثمنها، كان عشرة قروش، في جيبي خمسة أو ستة قروش، اتجهت لرفيقي " طه " الذي لم يتذكر الإعلان ولم يعرف كيف ينطق اسمها، أعطاني بقية المبلغ، واشتريت علبة، واقتسمناها سويًا، بالفعل بطعم الشوكلاتة الجيدة، ولكنني لم أشعر بالرغبة في الانطلاق، ربما لأن الشارع كان شديد الزحام أو لكرهي للولد طه عندما رأيته يبحلق في نصيبي يريد المزيد، وسرنا بعدها صامتين.

أترقب ظهور المذيعة لتعلن عن الفيلم، ولكن الإعلانات تتابع، وجاء إعلان بونبون " سيما "، مجموعة أطفال في عمري، نصفهم بنات شقراوات، أما الأولاد فيشبهونهن، كلهم يرقصون وهم يضعون مصاصات البونبون في أفواههم، يضحكون بصفاء، شتان بينهم وبين البنات والأولاد الذين معي في المدرسة، هؤلاء تلاميذ مدارس اللغات التي نسمع عنها، والمخصصة لأبناء " الذوات "، أهؤلاء هم الذوات ؟ يشبهون الأولاد الذين يمثّلون في الأفلام العربية.

وهذا إعلان البقرة الضاحكة، بلهجة الشوام، أطفال ونساء يلعبون في مساحات خضراء شاسعة، بها أحواض زهور لا تنتهي، وأشجار متنوعة، كأنها الجنة، الخضرة الزاهية تبرز بياض بشرتهم، والكل يزيل الغلاف الفضي عن الجبنة، ويلتهمها. أتعجب من سعادة وجوههم وهم يضعون قطع الجبن في شطائر الخبز، متلذذين بطعمها، بالرغم من أنني أكلتها عشرات المرات، ولم أشعر بهذا التلذذ، ولكن الإعلان لا ينقطع.

ظهرت المذيعة، رفعنا أيدينا أنا وأخي من تحت اللحاف مصفقين فرحينِ، وسرعان ما تتابعت تترات الفيلم، غرقنا في مشاهد انتصارات عمر المختار، ودهائه في التخطيط للمعارك، كنا في أعالي نشوتنا ونحن نرى العربات العسكرية والدبابات تتحطم أمام هجمات الخيول العربية، ودقة تصويب البدو بالبنادق وهم على الأحصنة، حيث تنفجر رؤوس الإيطاليين، وينبثق الدم من صدورهم.

ينقطع الفيلم... إعلانات عن حليب معلب من أفضل الأبقار في أستراليا، وعن دجاج مثلج من البرازيل، نعلم أن طعمه ماسخ؛ كما تقول أمي دون أن نتذوقه، فهي تعشق الفراخ البلدي، ولبن الجاموس الطازج الذي أشتريه في دورق، من درب الطباخين، وأستشعر دفء اللبن عند حلبه في المساء.

نعدّ الثواني، تتابعت اللقطات، تمنينا أن تستمر الانتصارات مثل فيلم " وا إسلاماه " أو " عنترة "، المحتلون الإيطاليون يجمعون البدو في معسكرات محاطة بأسلاك شائكة، يقتلون عشوائيًا واحدًا من عشرة، رصاصة في رأسه من الخلف، تخيلت أن أكون مكان أحدهم، ثوان تفصلني بين الآخرة. قلبي تمزَّق وأنا أشاهد الجنود الإيطاليين يجرّون شابة بدوية، إلى غرفة تابعة لهم، تصرخ الفتاة، وهي تستر ركبتيها، وهم يضربونها، ثم تئنّ فتُكتَمُ أناتها.

فاصل إعلاني لا طعم له، لقطات عن كاميرات وأفلام كوداك لا علاقة لنا بها، فلم يحدث أن اقتنيتُ كاميرا، ثم إعلانات مقتضبة عن أفلام مصرية في السينما؛ أفلام الضحك المغلّف ليونس شلبي وسيد زيان وسمير غانم.

عاد الفيلم، وعادت الهزائم المتلاحقة لأتباع عمر المختار، وكلماته المقتضبة " إما ننتصر أو نموت "، ثم المشنقة والنظارة التي يحملها الطفل، وزغاريد النسوة منتشيات، علمت ساعتها أن الشهادة شرف يحمله الأهل، يغطي على كل ألم وإن مس شرف النسوة.

••••

الخميس التالي، في حديقة المدرسة المهجورة إلا من أشجار معمرة تختزن أمطار الشتاء، وأعشاب صفراء متناثرة.

حكى العيال عن الأفلام الجديدة في السينما، فيلم "البنات عايزة إيه "، وفيلم " فتحية والمرسيدس ".. أطالوا في وصف حركات الضحك المصطنعة والمشاهد الساخنة..

نأيتُ عن ضحكهم وغمزاتهم، فمشهد المرأة البدوية، وجرّها، ولطمها، يخزّ أعماقي.

* * *

على دقة قلبي بغنيله

بحنوٍ يلعبون

كالعادة، " جمال " ومعه شقيقه الأصغر " أسامة "، أول المستندين على الجدار الحديدي لجسر ميدان " المبيضة " على ترعة بحر يوسف، التي تشق وسط المدينة، وضع حقيبته الجلدية بين قدميه، متطلعًا إلى الغادين والرائحين على الجسر، تتوحد ألوان ملابسهم؛ ما بين اللون الكاكي لمرايل تلاميذ المرحلة الابتدائية : الأولاد مكرمشة مرايلهم، دون حزام مشدود في وسطهم، والسواد في أساورها بفعل شقاوتهم، أما البنات، فمهندمة مرايلهم، مكواة بعناية، يشددن أحزمتهن بعناية، فتبدو أعوادهن متنوعة الأحجام، وقد نبتت صدورهن على استحياء. طالبات الإعدادية والثانوية يسرن في جماعات، متوحدات بزيهن الرمادي، وأحجبتهن البيضاء، يتبعهن الطلاب بألوان رمادية : بناطيل متدرجة من الغامق إلى الفاتح والجينز، وقمصان بيضاء.

عبر خلال فتحات السور الحديدي للجسر، أطلَّ وجه "أسامة " الصغير، ذي الأعوام السبعة، مراقبًا مياه البحر التي تتهادى أسفل الجسر، يبتسم متطلعًا للفئران المتقافزة بين جحورهن على شاطئ البحر الترابي. ينفخ في الهواء، فتتكون هالات من بخار الماء، يكرر الفعلة مستمتعًا.

الساعة السابعة إلا خمس دقائق، عليه أن ينتظر حتى يأتي صديقاه " فكري " و" محمود "، يغدوان معًا، لأنهما يسكنان في شارع " الشط " البحري، أما هو فيسكن في درب " الزامر ".

– بخ، بخ، بخ.

انتبه الشقيقان على الصوت، يألفانه، لا يكف " محمود " عن المداعبة، اختبأ بين السيارات حتى فاجأهما، ولم يره جمال وهو المتفحص في وجوه عابري الجسر.

- جئتما مبكرين اليوم ؟!

قال جمال وهو يحمل بيده اليمنى حقيبته، ويتعلق شقيقه باليسرى، والتئم عقد الأربعة، وهم يغدون السير نحو شارع المدارس، الذي اكتظ بالطلاب المتقاطرين من الشوارع الجانبية.

- نشتري السندويتشات من الفوال " ربيع " أم من " مطعم " أبو ذقن ".

سأل محمود.. أجابه فكري بالتوقف أمام عربة عم " ربيع " الفوال، متسللاً بجسده الصغير بين المتزاحمين، زاعقًا، وقد ثنا إبهامه ورفع أصابعه الأربعة بالنقود، ولا يبدو في عينيه إلا كرش " ربيع ".

ارتكن الثلاثة الباقون بعيدًا عن الزحام، يعلمون أن " فكري " أخصائي التزاحم.. دقائق، وخرج " فكري " حاملاً لفتين ورقيتين بالشطائر، أعطى إحداهما لمحمود، ووضع الثانية في حقيبته. غمغم " أسامة " :

– لماذا يا جمال لا نشتري من المطعم ؟

بحنان رد أخوه :

– ماما – الله يرحمها – كانت تحذرنا من أكل الشارع.

ارتفعت رائحة الفلافل، عندما راح " محمود " يلتهم شطيرتيه، مرددًا :

– لن أنتظر الفسحة، بطني لا تتحمل الجوع.

ضحك الثلاثة ساخرين، وإن اشتاقت أنوفهم للطعمية الساخنة.

••••

أذهب " جمال " أخاه " أسامة " إلى طابوره، في الصف الثاني الابتدائي، ثم انتظم ثلاثتهم في طابور الصف السادس الابتدائي، وقفوا متتاليين، مشاركين بروتينية في التمرينات الصباحية. تناهت لأسماعهم موسيقى النشيد الوطني ضعيفة، متذبذبة، من " أكورديون " حملته إحدى التلميذات، فيما التصقت بمنفاخه الميكروفون الحديدي؛ تصلبت به يد إحدى التلميذات.

• • • •

في الفصل، متجاورون ثلاثتهم على طاولة واحدة. الحصة الأولى، ارتعدت فرائصهم وهم يرون الأستاذ " إمام " - معلم المواد الاجتماعية - يسد بجثمانه باب الفصل، متحاورًا مع إحدى المعلمات الشابات حديثة التعيين. قهقهاته عالية، تعمّد أن تكون أكثر ليونة، لعلها تخفف من نبرات صوته الأجش. الخرس عنوان هيئة التلاميذ والتلميذات، فليكتموا الهواء بدلاً من كفه الضخمة التي تهوي على الأصداغ؛ فتتورم وتظل أسبوعًا محمرة.

سجَّل عنوان الدرس على السبورة، ثم طحن الطباشيرة أمام أعينهم ببطء، فتطايرت ذراتها أمام العيون متعلقة بكلماته المبعثرة، مزيج من الأرقام عن السكان والمرتفعات والمنخفضات؛ فليظهروا كامل الاستيعاب في مآقيهم، وهم يعلمون يقينًا أنه يشرح جغرافية الصومال باسم دولة "المغرب"، رغم أن صفحات الكتاب أمامه على الطاولة يقلبها، يتلعثم في القراءة، ثم يعيد.

عيناه محمرتان، تثاءب فخرج هواء أعماقه زمجرةً، استدعت أن يتثاءب "فكري" كاتمًا هواء رئتيه بمجمع كفه، من أثر السهر؛ فأشار له الأستاذ، يعلم موضعه على السبورة، ظهره للتلاميذ، بجواره صندوق القمامة الذي لم يفرغ منذ أيام، عليه أن يترقب الصفعة، من الأصابع التي ستطول رقبته وقفاه أيضًا. شعر بالخجل من التلميذات، يعلم أنهن يبحلقن في مؤخرته، بنطال مريلته الكاكية أقرب للون البني، بفعل عمله مع والده " الأسترجي ". ازداد التصاقًا بالحائط، يتشبع أنفه برائحة القمامة العطنة، امتزجت برائحة دهان الأثاث المشبع بالكحول.عليه أن يزدرد الغذاء واقفًا، ويضع قطعة اللحم في قطعة خبز، ثم يسرع إلى محل والده.

– لماذا تأخرت يا وسخ ؟

– كان عندي حصص في المدرسة.

– صنّفر السفرة هذه، أريدها أنعم من وجهك.

نسى فكري أن يبدل مريلته في المنزل، تطلع لوالده، وجه متغضن مشبع بدخان الشيشة التي تتواجد في المنزل والمحل والمقهى. عليه أن يظل في الدكان، لحين عودة والده قبيل المغرب، ويظل إلى ما بعد العشاء. يمسك الصنفرة خشنة الملمس، يضن أبوه بأجرة عامل، فيلزمه بالمحل بعد المدرسة.

– ماذا سنأخذ من المدرسة يا ابن الكلب ؟ أخوك أخذ دبلوم الصنائع، وطفش لأوروبا، لم نر منه أبيض ولا أسود، أعجبته النسوان البيضاء. ابن الكلب سافر يغسل الصحون.

يلقيها أبوه، وهو يقلب وجهه، ينظر للشيشة، لا يزال تتوهج بالمعسل، فضَّل أن ينهي الحجر، قبل أن يغادر، يعلم " فكري " أن الشيشة تتلون باللون الأزرق ليلاً، عندما يعود لمنزله، ويظل أبوه في المحل مع أصحابه.

آثر أخوه الأكبر " علي " الهرب من شتائم الوالد و " تركني كي آخذ قسطي منها". الليلة البارحة، ألزمه أبوه بالسهر لإكمال دهان كراسي السفرة.

أنهى الأستاذ ثرثرته، سكت، شعر فكري بعيني الأستاذ مصوبة لظهره. لن يكلف نفسه النهوض، سينادي عليه، ثم...

عليه أن يكتم الدمع، وأن يسرع عقب الجرس إلى الحنفية، حتى يبرد خده وقفاه، ربما يخفف الماء البارد الاحمرار، ولكنه لن يزيل آثار الأنامل الضخمة، عليه أن يظل أثناء الفسحة في الفصل؛ بحنو كانت يدا محمود وجمال تتحسسان عليه، وهو يغطي وجهه.

••••

أوقفته الأبلة " صبيحة "، غرق في خجله، نظراتها تحيط به، وهي تتحرك بين الطاولات جيئةً وذهابًا، كثيرة الحركة كعادتها، تبدأ حصتها بأسئلة عن الدرس الفائت. تتأمل "جمال" بشعره الأكرت، ورأسه المستدير :

– حِلِ المسألة، هيا.

تصلب في وقفته، لن ينطق كعادته، سيظل ساهمًا، يتلقى سخرية وشتائم. تطلعا إليه؛ فكري ومحمود، يتذكران يوم عودته إثر غياب أسبوع، ظل يتحدث وهما ينصتان إليه، وسمعه باقي الفصل.

- الساعة السادسة صباحًا... كان يحمل اللبن الذي اشتراه من " كفر القرعة"، يريد اللحاق بزبائن مقهاه الذين يحبون الشاي باللبن، انحشرت قدمه في فلنكات القطار... تمزق جسمه، واختلط اللبن بالدم، فجمعوه في جوال، ووضع رجل ساعته ومحفظته في منديل، قال أنا من نقطة الشرطة و لم يره أحد بعدها.

- شفت كل هذا ؟!

- سمعته من الناس، يوم أن وصلنا الخبر، كنا رائحين للمدرسة، ذهبت مع خالي، وجاءت زوجته تولول عند أمي.

سألته إحدى البنات:

– وأمك ماذا حدث لها ؟

– راقدة في البيت من ساعتها.

غاب أسبوعين آخرين، وجاءت مشرفة الغياب تستفسر، تبادلا النظرات، نطق محمود :

- أمه رحمها الله، وهو مع إخوته في البيت.

عاد جمال، لم يصدقا أعينهم، هزيلاً، وقد تشبع وجهه الأسمر بصفرة، مشى هو وأخوه معهما، كان لابد أن يتكلم.

- خالي أخذ المقهى، وزوجته سيطرت على البيت.. نكرهها من قبل أن تموت أمنا، أخرجت أختي الكبيرة " شادية " من المدرسة، لترعي أخانا الرضيع.

-........... ؟

- سنتحملها، ونتحمل خالي، حتى نكبر.

لا فائدة من نقاش الأبله معه، أجلسْته، بعدما أسمعته صرير أسنانها، وجهه متجمد الملامح وهو يقتعد وسط زميليه. استدارت الأبله متجهة إلى كرسيها عند السبورة، مال محمود عليه، يعلم أن سمعها ثقيل، لذا تقترب إذا أرادت أن تسأل تلميذًا.

- جمال، اسمع ، مرة واحد وقع في الزير.

همس فكري :.. هه! أكمل محمود :

- قال للكوز طلعني بيدك.

- هههههههههههه، ومرة واحد راح يشتري لحمة، وقع في الزحمة.

ابتسم جمال، وتصنع فكري الوجوم، قائلاً : بائخة مثلك. انطلقت قهقهات الثلاثة، والأبلة غارقة في تصحيح الكراسات، وحولها تلميذات يبتسمن.

••••

حين نزلوا ثلاثتهم من الصف، كان عم " عرفة " الحارس لا يزال يجذب الجرس الحديدي، فيدوي في الفصول الفارغة. أسامة الصغير ينتظرهم عند باب المدرسة، يراقب الحديقة وحظيرة الدجاج المهجورتين. تحركوا، شارع المدارس يمتلئ ضجيجًا، جذبهم محمود، تجاه الساحة الترابية، خلف مدرسة "الباسل " الإعدادية، ضحكوا. هتف محمود، وهو يخرج كرة بلاستيكية، مطوية في قعر حقيبته:

– نلعب مثل كل يوم، أتأخر أحسن من الرجوع الآن.

ـ لماذا ؟ .. تساءل أسامة.

ـ لو عدت الآن، سأجد صراخ أبي وأمي اليوم، على المصاريف، والعيال الثمانية، وبعدها يتغذى أبي ويخرج، موعد ورديته في شركة الأوتوبيس الساعة الثالثة عصرًا، سيهدأ البيت.

ـ تترك الغذاء ؟

ـ سآكل ما تبقى، والحمد لله مقدمًا.

أنهى نفخ الكرة بفمه، وقذفها بمهارة عاليًا. استقرت حقائبهم أسفل شجرة النبق. آثر أسامة أن يظل مع أخيه في فريق، فيما كان جمال ومحمود في الفريق الآخر. يرتفع صياحهم، تطير الكرة مستقرة فوق الشجرة، يتسلقها محمود بسهولة، يلقيها فيتقلفها فكري برأسه، ومنه إلى رأس جمال ثم يحتضنها أسامة. المباراة مستعرة، يبرع أسامة حارسًا للمرمى المكون من حجرين.

في طريق عودتهم للبيوت، شارع المدارس خفيف الزحام.

– سأقول لأبي في الورشة، تأخرت لأن الحصص كثيرة اليوم.

– لن تسألني زوجة خالي عن تأخيري، سألعب مع أختي الصغيرة حتى تضع أختي شادية الغذاء لنأكل نحن الأربعة.

ـ يمكن أن أرى أبي الآن، وهو يقود أوتوبيس المواصلات في البلد، ينظر أمامه من نظارته السميكة، لن ينتبه لي ولو وقفت جانبه. في البيت، سأجد الغذاء على الطبلية، آكل وأنا بالمريلة، أمي نائمة، وإخوتي متفرقون.

* * *

جمل أبو علّة

أسير في حارة " سوق الصوف " المتفرعة من شارع البحر، كالحية متلوية متوغلة إلى حي الصوفي ببيوتها المتلاصقة، مجبور كل قاصد للحي أن يخطو على ثرى هذه الحارة، ويمرّ بسوقها.

– لماذا أسموها بسوق الصوف ؟

حملتُ سؤالي إلى جدي، الذي حكَّ شعره الأبيض، وهو يرتكن بظهره إلى حائط المسجد، وضحك وهو يتساءل:

– وما الذي يحيِّرك في الاسم يا بني ؟

– لا أحد يبيع الصوف في الحارة.

عاد لضحكته الكاشفة عن نواجذ متآكلة بفعل الزمن، راح يحكي عن سنوات خلت، حفرها في ذاكرته زمنٌ يصفه دومًا بالجميل، ولا نعرف عنه إلا أطلالاً تبدو حيَّة في كلماته، كانت الحارة مقصدًا للبدو القاطنين في أطراف الفيوم، تأتي نساؤهم المتشحات بالملس الأسود محمولات على نوق وجمال، لبيع الصوف المقصوص من الخراف، يبعنه خيوطًا مغزولة أو لفّاتٍ كبيرة تأخذها صانعات الصوف في البندر.

أبحر مع تجاعيد جدي لزمنٍ دافئ، يلتف الناس فيه في الحارة حول القادمين، يفترشون حصيرًا، ويتحلقون في حلقات يحكون ويغنون، وينشدون أشعارًا لشعراء البدو، عن شهامة أبطال، وتضحيات رجال، وعن غربة قبائل وتشتتها وتمسكها بسكنى الأطراف لتكون في معية الرمال، خشية أن تذوب في بيوت الآجر، وما حولها من خضرة تملأ البصر.

• • • •

صغيرًا كنتُ في الثامنة من عمري، وأنا أرنو لمنازل الحارة العتيقة بأبوابها الخشبية الكبيرة ذات المطارق الحديدية، متشابهة الصوت. نوافذ ومشربيات، يكتفي من بداخل الدار أن يرفع طرفها الأسفل ليرنو إلى الحارة، يطالع المارَّة، وما في الدكاكين من غلال وبقالة، وما يعرضه الخضرية والفاكهانية.

عليَّ أن أشتري ما طلبته أمي، ولا أتسمَّر طويلاً أمام دكان الخيَّاط العربي، الذي لا أراه إلا محنيًا على صديري يإبرة طويلة، تخزّ القماش، لتخطَّ زخارف عليه. لا يعرف ماكينة خياطة، فقط يجلس على شلتة قطنية معه مقص وأمامه طبلية مستطيلة، ويشدُّ القماش إلى قدمه، وصبي بجواره، يلضم الإبرة له، ويفرد الخيط. لاشك أنه أحدب الظهر، بفعل سني انحنائه؛ وإن كان وجهه أبيض، وصدغاه محمرتين.

يضحك جدي، ويقول ردًّا على عجبي:

– تقصد عم " إمام " الخياط، أصابعه ذهب، وإذا مشى في الحارة كان أطول المارة، وأصلبهم عودًا، الزمن يُحني الأبله والعبيط.

• • • •

لم أصدق عيني التي اشرأبت تحاول أن تجمع هيئة الجملين الكبيرين اللذين دخلا الحارة بتؤدة، ثم جثما أمام دكان عم " إمام ". أرجل الجملين مشبعتان بالوحل، وتناثر كثير من الطين على جسديهما، فيما استقرت على ظهريهما صناديق ولفّائف مربوطة بحبال الليف.

تطلع إمام إليهما، وإلى البدوي ذي الكوفية الذي كان يعتلي أحدهما، ويجر الثاني بحبل خلفه، وتبادلا ابتسامات دالة على عميق معرفة بينهما. ترجّل البدوي متجهًا لعم إمام، الذي وقف معانقًا وقد بدا طوله واستقامة ظهره.

أمسك البدوي بكوب الشاي الذي أعده الصبيّ، واتخذ جلسته جانب " إمام "، اندهشتُ من رشفاته المتتابعة من الشاي الساخن، الذي تصاعد بخاره، اقتربتُ منهما وانزويتُ في جانب المحل، حاشرًا جسدي بين ضلفتي الدكان المنثنيتين جانبًا، لأسمع حكايات عن بلادٍ بعيدة، يقص البدوي و" إمام " يسأل ويسمع، وقد انفرجت أساريره. تتابعت أكواب الشاي والحلبة والكراوية. أنظر للجملين اللذين أنيخا جانب الدكان، ليتني أعتلي سنام أحدهما، لأرَ الدنيا من عليائها، ويهتز جسدي وقد يتراقص في مشيها الوئيد.

••••

لم أجد أحدًا لأحكي له سوى جدي، الذي أجلسني جانبه على الدكة الخشبية في دهليز بيته، تحمستُ في كلامي فرحتُ أروي ما سمعت، إلا أن جدي عاد يضحك بفاهه الكبير عميق الظلام، ويبحر في ذاكرته لزمن بعيد كانت قوافل الجمال تملأ الحارة، تأتي بخيرات البادية من وبر وأصواف ومنتجات ألبان ولحم مقدد، ثم تعود حاملة خيرات البندر من أقمشة وغلال ومصنوعات.

– وأين القطارات والسيارات ؟

ينتبه جدي لسؤالي، فيضطر لقطع استرساله :

– صحيح يا بني، كان في البلد سكك القطار، سكة مزدوجة تشق البلد، تحمل قضبانها قطارين، واحد إلى مركز أبشواي، والثاني إلى مركز سنورس.

– ثم ماذا يا جدي ؟

– السكة اليتيمة، شريط قطار، وحيد، يخترق غرب البلد، متجهًا إلى مركز إطسا، وكان ترولي، يعمل بأسلاك الكهرباء.

تتخاتل الفيوم القديمة أمامي، القطارات زاعقة، تمرق في جنباتها، والراكب يرنو إلى بيوت بسيطة، قوامها الطوب والأخشاب والحكايات الدافئة.

لم ينتظر جدي أن أسأله عن القوافل، سرعان ما حكى لي عن قرى معلقة في الجبال، وعزبٍ متنائية، وقبائل متنقلة، لا تجد وسيلة للتواصل مع البندر إلا بالجمال، تأتيها بالمؤن، وبالأخبار. تناخ الجمال في مداخل القرى والأسواق، ويلتف الناس حول أصحابها.. وما أجمل الحكايات الجديدة ! وأجْمِلْ بها أن تعرف بقايا حكايات رويت ولم تكتمل، أو أن هناك من التفاصيل لم يذكر.

••••

في عودتي من المدرسة، حكيتُ كثيرًا لصديقي الذي يحمل نفس اسمي، ويسكن في "سوق الصوف"، حدثته بحديث جدي، الذي رسخ بأعماقي، ضحكنا معا وغنينا: " جمل أبو علّة.. طقطق قلة "، وقال إنه يسكن في بيت جده في الحارة، ولم يحكِ له أحدٌ عما سمعه، أحسستُ بالفخر، قادتنا خطواتنا إلى حي الصوفي، ابتعدنا كثيرًا عن بيوتنا، استنوقفنا كثيرون، سألناهم عن السبيل إلى الحارة، يشيرون فنسير، وسرعان ما نجد أنفسنا في حارات أخرى، تأخذنا إلى أعماق الحي، أو تلفظنا إلى شارع البحر، بعيدًا عن وجهتنا.

أخيرًا رأيناها، الجمال في سيرها الهوينى، تحمل على ظهورها من خيرات الغيطان، كيزان الذرة، وأعواد القصب. تجمدنا في مكانينا، أنا وصديقي، عيوننا عليها.. تطَّلع إلينا صاحب الجمال من عليائه، اندفعتُ أسأله عن الطريق لسوق الصوف، نظر لملابسنا المدرسية: مرايل قطنية كاكية اللون، وحقائب جلدية، ابتسم، وقال بلهجة بدوية:

– يا ولدي، سوق الصوف بعيد من هنا.

اصفرَّت وجوهنا فقد تناءينا كثيرًا، ابتسم وهو يقول:

– أنا رايح هناك، تعالا معي.

جمل يناخ، يساعدنا الرجل الطيب ذو العباءة الواسعة والغترة البيضاء على اعتلاء السنام، أنا في المقدمة وصديقي خلفي، والحقائب في أحضاننا.. ضحكنا عاليًا، ثم صرخنا بفزع، والجمل " أبو علّة " يعلو بنا، نشاهد أسطح البيوت، يأتينا صوت الرجل يعتلي جملاً آخر، يحكي لنا عن قدومه من مضارب البدو، ومروره على فلاحين، اشتروا منه صوفًا ووبرًا، وباعوه غلالاً وثمرات.

أسأله بصوت خفيض عن بيته، أين يسكن، ينظر لي بعينين عسليتين ضيقتين، يجيبني بحنان وهو يشير للجمل:

- عيالي مع أهلي في القبيلة، وهذا هو بيتي.

نتمايل مع اهتزازات الجمل، نكتم دفئًا في أعماقنا، وصلنا الحارة، أنيخ الجمل جانب دكان عم إمام، الذي أسرع بمعانقة البدوي، وأعدّ أكواب الكراوية بنفسه، ثم ناوله عباءات وصديريات محكمة التطريز... غرقا في حكايات الطريق والقُرى والناس.

* * *

عربة كارّو

قيظ ظهيرة في صيف ملتهب، يسير بعربته الكارّو، تجاه مسجد الروبي، وصل الميدان الفسيح، سخونة الأسفلت تلسع قدميه، مخترقة نعله الجلدي، آثر الابن الجلوس على العربة الخشبية، وأبوه يدفع الحمار الذي يجرّ العربة، ويضربه بحزام جلدي معلق في يمناه. الأب لاهٍ عن نتوءات الشارع، فيما استمتع الابن باهتزازات العربة. يقترب من سور المسجد الحجري، تسلل الباعة إلى ساحة المسجد الداخلية، أملاً في الظل. خلف المسجد، أوقف " رجب " عربته جانب السور، مصطفة مع عربات أخرى، وربط حماره إلى حجر ناتئ، واضعًا أمامه كيس العلف الناشف. اتخذت العربة هيئة مثلثة: ذراعاها الخشبيتان إلى أعلى، وطبلية التحميل إلى الأسفل، نزل الابن " إبراهيم " ذو الأعوام الثمانية إلى أسفل الطبلية، ابتسم " رجب "، يدرك أن الشمس أولعت رأس نجله، فلاذ بظل العربة. مدَّ إبراهيم يده إلى صندوق مثبت أسفل الطبلية، ليخرج جَوالاً قديمًا، ثم فَرَشَه، وتمدَّد عليه. ابتسم الأب، يعرف عادة ابنه أن يغط في الظهيرة.

تسلل الأب إلى "ميضأة" الجامع، ومنها إلى ساحة المسجد، والمياه تقطّر منه، اصطف في جماعة لصلاة الظهر، ومعه عدد من " العربجية " الذين صفّوا عرباتهم خارج السور.

حين عاد رجب إلى عربته، اضطر أن يمدد قدميه خارج الظل، جاعلاً رأسه جانب ابنه، الذي ارتفع تنفسه المنتظم مطبقًا جفنيه. تخايلت زوجته وطفلته ذات الأعوام الثلاثة في قرية " الزاوية "، التي يقطع مسافتها في ساعة عقب صلاة الفجر، وقبل أن تلسع سهام الشمس وجهه. يتذكر نصيبه من بيت أبيه.. غرفتين متداخلتين، أما دورة المياه فهي مشتركة بين باقي الإخوة، الذين اقتسموا طابقي البيت، وانفردت أمهم بغرفة في المدخل. يغيب الرجال عن البيت طيلة النهار، رجب بعربته إلى البندر، وأخوه محمود " نجار مسلح " يتعلق بسيارة نقل عمال التراحيل حسبما يأخذهم المقاول، ويكدّ الأخ الثالث عبد العالي في الغيطان.

يضحك، وهو يتذكر الاتفاق اليومي مع "أم محمد " بائعة الخضار، يحمل مقاطفها المربوطة بإحكام على أكوام من المقدونس والفجل والجرجير والكراث والبنجر. مسكينة أم محمد، عليها أن تسابق الفلاحين في الاستيقاظ قبل أن يرفع شيخ الجامع آذان الفجر، تحلف له كل يوم وهو يحمّل خضارها على عربته:

- والله يا " بو إبراهيم " كنت في الغيط والقمر منوّر في السماء، وصاحب الغيط يحشّ الخضرة، وأنا أعبئها في المقطف.

يضحك رجب ويداعب هذه السيدة التي تكدّ على ثلاث بنات وولد :

- ولكن القمر يختفي في ليال كثيرة.

تضحك أم محمد وتبدو ثنياتها وتهمس :

- ادع لي يا رجب، يرجع أبو العيال من ليبيا، ويريحني من الهم.

يتمتم رجب بدعاء العودة بالسلامة.

كم حكت له أم محمد عن الزوج الذي يعمل فلاحا في مزرعة في صحراء الجنوب الليبي، غاب سنتين وعاد للبلد ليلاً، خالي الوفاض، وهو يسب الذين سرقوا ما جمعه.

- وسافر مرة ثانية يا أم محمد ؟

ترد وهي تمسح دمعة أفلتت من مقلتين أحكمت السنون قبضتها، فتحجر الألم فيهما، وأفلحت في تزويج بنتين، وأن يكمل محمد تعليمه إلى الثانوية. ترد بعطف، وهي تتذكر زوجًا امتزجت الطيبة والهموم في سحنته:

- نعم يا رجب، مسكين زوجي، الدنيا ضاقت به هنا وهناك، والولد محمد يكد في الغيطان باليومية، ويقول لي: أكسب مصروفي بعرقي.

- ألم تأتِ أخبار عن زوجك؟

تتنهد، وتبتسم بصفاء:

- ربنا يرجعه بالسلامة.

على طبلية عربته الخشبية، تسند أم محمد رأسها إلى مقطف كبير، تغفو، بجانبها يجلس إبراهيم، يأكل شطيرة خبز مغطاة بجبن وزبد، أخذها من أمه.

• • • •

فتح إبراهيم عينيه، متطلعًا لأبيه الذي أخذته سِنةٌ... ثم انتبه على حركة إبراهيم، همس الابن :

– سأشتري سندويشات من مطعم " قرني ".

مدَّ رجب يده بنصف جنيه، فطار الابن بها، دقائق، والتفَّ الاثنان على قرطاس " طعمية "، وأرغفة ساخنة، وسلطة طماطم وبصل وفلفل، وأخرج رجب من الصندوق تحت العربة ربطات جرجير وفجل، أعطتها أم محمد له في الصباح. ملأت رائحة الطعمية أنفيهما، وهما يشكّلان من الأقراص الساخنة والسلطة والأوراق الخضراء لقيمات.

- يا رجب، خذ الشاي.

كان عامل المقهى واقفًا بصينية أكواب الشاي، يبيعها للعربجية المصطفين جانب الجامع. تناول رجب الكوب الساخن، ثم ناول العامل خمسة قروش.

مع رشفات الشاي.. يهمس الابن :

– اكتب اسمي يا أبي.

انتبه رجب لطلب ابنه الذي بات يكرره كل يوم، فواصل الابن :

– أتعلم كتابة اسمي على الورق، مثل عيال البلد.

تذكر الأب سني صباه في كتّاب القرية، حين كان يعلّمه "الفقي " آيات الذكر ومبادئ الكتابة. ابتسم الأب، فأسرع الابن بإحضار قطعة كرتون، وأخرج قلم " كوبيا " من الصندوق. ثبت " رجب " أنامله على الكرتون، وضغط بقوة على القلم مسجلاً : " إبراهيم رجب إبراهيم خضر ".

سرعان ما أمسك الابن القلم، وراح يكتب اسمه. ويتمتم :

– نفسي... أروح المدرسة مثل عيال البلد.

وخزة في أعماق الأب، " يروح الولد المدرسة، ويتركني أشيل بضائع الناس وأكدّ لوحدي "..

كرَّرها الابن بصوت عال. يعلم الأب أن الولد تجاوز سن المدرسة بعامين.

– أنت تساعدني، وأنا أعطيك يومية.. جنيهًا كل يوم يا إبراهيم.

– أروح يا أبي، وسأساعدك..

أشرق وجه الأب..، ضحك الابن، ستزغرد أمه التي كانت تدعو أن تراه مهندسًا أو دكتورًا، ومعه الشهادة الكبيرة.

• • • •

مرَّ على سوق الخضار، وضعت أم محمد مقاطفها الفارغة، ستغفو كعادتها، وهي تتمتم:

– سأصحو مع " القمراية "، وأحشّ الخضرة إن شاء الله.

بجانبها، إبراهيم يحلم بالمريلة الصفراء، والشنطة الجلدية، والكتب الملونة.

رجب منهك، بعد يوم متكرر، يتنقل فيه بين الأسواق والبيوت.

* * *

الشجر و القمر

الوقت مبكر على ذهابه لمدرسته الابتدائية، هكذا اعتملت الخاطرة في نفسه، وهو يحمل عن أمه – عاملة النظافة – كيسًا ورقيًا، وقد علَّق على كتفه حقيبته المدرسية القماشية، ثم يدلف معها من باب مدرسة البنات الإعدادية الخاصة التي تعمل بها.. تلقي الأمُّ السلام على " عبد العليم " الحارس، فيرده بهمهمة مفهومة وهو جالس في غرفته الملاصقة للبوابة. لا تزال السماء مغبشة ببقايا الغيوم والظلام، في صباح شتائي بارد.

دخلت الأم غرفة العاملات، وأخرجت الخبز والفلافل ساخنة، وأعدَّت لصغيرها عدة سندويتشات لفَّتها جيدًا بورق أبيض، ودسَّتها في حقيبته التي ركنها جانبًا، تلفتتْ باحثة عنه، كان قد تسلل بالمقشة ليكنس الفصول، محافظًا على ترتيب المقاعد والطاولات.. ابتسمت وهي تنادي بصوت منخفض عليه.

قبل أن تصل أي من طالبات المدرسة، أنهى عمله، وغسل وجهه، ونفَّض مريلته الكاكية، وقبَّل يد أمه، ثم ذهب إلى مدرسته غير البعيدة، موقنًا أن عليه مرافقة أمه في عودتها للبيت، لذا يتأخر حتى تغادر كل طالبات المدرسة، ومن ثم يسرع بكنس ممرات الإدارة وما بين الفصول، على أن يكمل في صباح اليوم التالي.. ستنازعه أمه دومًا وتمنعه من التكرار.

يعلم أن مديرة المدرسة حادة اللسان والمزاج، لذا تلوذ أمه وهي كبيرة السن بالصمت إزاءها، ولا تملك إلا إطراقة الرأس موافقةً على كلامها.

••••

في روحتهما إلى البيت، يحكي لها أنه أكل كل طعامه، واحتفظ بقروش مصروفه فقد أشبعته الفلافل. وأنه سيدرس وينجح ويتفوق، وأنه لا يزال يفكِّر ماذا سيكون في المستقبل. يحكي لها كل ما يسرها، وهي تتكئ عليه في سيرها، سعيدة بكلامه المتصل عن زملائه ومدرّسيه. حتى يصلا للمنزل.

تحمد ربها أن رزقها بـ " محمود " وهي التي حُرِمت الذرية، من زواج دام سنوات، أعقبه طلاق وظلت تحمل لقب مطلقة في قريتها المجاورة للبندر. حبلها عزيز هي وأختها الصغرى، إلا أن زوج أختها صبر ودعا، فامتن الله عليه بولد بعد سنوات طالت أوشك فيها العود أن يجفّ.

زغردت يوم ولدت أختها ولدًا، وغزت بيوت القرية بالشربات، ولاذت بالبكاء يوم جاءها نبأ وفاة أختها بحمّى النفاس. واستوت الدنيا والآخرة في عينيها، فلم تفرح كثيرًا عندما وجدت نفسها زوجة لزوج أختها، وتحمل ابن شقيقتها – وهو قطعة لحم حمراء – على ذراعيها، وتتفنن في إطعامه، مسترجعة كل ما شاهدته من هدهدة الأطفال، وفن إسعادهم، وانبهرت عندما رأته حاملاً ملامح أختها وطباعها؛ هدوءًا وصبرًا وقناعة.

• • • •

منزلهما غرفتان متداخلتان، وفوقهما سطح به عشش الفراخ، تحمد الأم ربها أن هدى أبا محمود إلى شرائه بكل ما ادّخره طيلة عمله كعامل " قروانة " في المعمار، متنقلاً بين القرى والمحافظات.

مات أبو محمود بعد سنوات، وتلاشت الجنيهات التي تركها، وكان عليها أن تعمل فرّاشة بوساطة من " عبد العليم " حارس المدرسة، الذي يقطن في قريتها، ويعرف أنها الوحيدة الباقية من أسرتها، فنسلهن قليل.

يختزن محمود في أعماقه همسات أمه / خالته الليلية، أن تعود إلى قريتها، ويكون لها بيت يجاور الخضرة، ليلتقي في مدّ بصرها الشجر والقمر.

• • • •

في هذا اليوم كانت مريضة، فتحاملت على محمود وذهبت، لم تتنبه لاستفسار عبد العليم عن سبب تأخرها، أسرعت بالدخول، وأسرع محمود بتنظيف الفصول، امتد الوقت، ووقفت البنات في الطابور الصباحي.

حين فتحت باب الفصل أولى الطالبات ولوجًا، كان محمود ينهي تنظيفه. كلهن تسمَّرن لرؤية هذا الصبي، والغبار يصبغ شعره الغزير، أغلقن الباب، وحضرت المعلمة، وتطلعت إلى محمود الذي تحرّك بينهن غير منكّس الرأس، غير مكسور العين، غير مبتسم. نزل لأمه، قبَّل يديها المعروّقتين، وحاول الخروج من الباب الخلفي للمدرسة، ولكن عبد العليم الحارس ناداه وفتح له الباب الأمامي، لم يفهم الصبي، وهو يجر حقيبته القماشية، ليدخل إلى مدرسته متأخرًا.

ولا يزال يحتفظ بكلمات أبيه وهو يحتضر: خالتك " صفية " هي أمك وأبوك.

• • • •

عليه أن يعمل في عطلته الصيفية، وأن يتقن حرفة، يستند إليها في صباه وفتوته، ويجابه تقلبات الدنيا التي تجري عليه مثل ما تجريه على الناس جميعًا.

• • • •

تصر أن تتسند عليه، لتخرج وتجلس على الدكة الخشبية أمام البيت الجديد، ظهرها شديد الانحناء.. عبث حفيدها بخصلات شعرها فبرزت شديدة البياض من طرحتها السوداء، كلماتها تمتمات، ينصت لها محمود، ويحكي لها عن عمله معلمًا في المدرسة الإعدادية بالقرية، ويعيد عليها كيف أنه باع البيت في البندر، واشترى بيتًا جديدًا في القرية.

يجلسان متجاورين، تشير إليه ألا يسكت، تصدر عنها همهمة، فيمعن في الحكي، يتلاقى في بصرها الشجر والقمر.

يشير إليها أن تدلف للبيت، فالمساء بارد.. تستجيب له، يطعمها بيديه قبل أن تتمدد في فراشها، وتهمهم مسترجعة: محمود الصبي الذي لم ينكس رأسه أمام البنات كما حكت لها مديرة المدرسة والمعلمات، وأصررن أن يخرج أمام الطالبات من الباب الأمامي، وألا تخبره أمه بشيء عن الحدث، ليكون معها في غدوها ورواحها اليوميّ.

* * *

ابتسامة وشقاوة وثأثأة

أعلم أنه يكذب، ويمعن في كذبه كلما حلف... إنه صديقي الولد " سعد " الذي ملأ أذنيَّ وهو يحكي عن الفدادين الكثيرة التي يمتلكها أبوه في قريتهم، وعن بيتهم الكبير هناك، وعن أجولة الغلّة التي تحملها العربات من ريع أرضهم، لتستقر في مخزن أبيه في " سوق التبن "، وتفاخره بأنهم أول بيت اشترى التلفزيون الملّون في الحارة، في زمن كانت أجهزة الأبيض والأسود عزيزة لدى الناس.

ذات مرة، اصطحبني إلى دكان أبيه ذي السقف المسقوف بعروق خشبية، والقابع أسفل بيت كبير مهجور، مزدانة واجهته بزخارف قديمة، تعود لأيام العثمانلي، كما علمت من جدّي... نظر لي أبوه شذرًا، ولم يطل النظر، فقد وضع أسفل شاربه الكثّ مبسم " الجوزة " فتتابعت سحب دخانها الملتف لتملأ فضاء الدكان. على الحائط صور عديدة لأبي سعد، بعضها وسط السوق، وأخرى في أعراس، يرتدي نفس ملابسه التي أراه بها الآن، جبة وقفطان، وإن تعددت ألوانها، واختلفت ملامحه بين شباب وشيبة. انشغل سعد بأمر من أبيه بحمل أجولة إلى خارج المحل، وتسمرت أنا في ركن قصي، لا تنتبه عينٌ لهيئتي المحدودة الحجم.

جذبني بدير – أخو سعد الأصغر كثير الثأثأة في كلامه – لنشاهد مخزن دكانهم في الحارة المسدودة المجاورة، بابه خشبي ضخم، بمطرقة حديدية صدئة.. تسللنا من فرجة الباب؛ أجولة متراصة وإن قلّت: أين الغلّة التي تحملها السيارات؟ ثمة رائحة عفنة ممزوجة بذرات الحبوب المتطايرة.

الكذاب لا أرجل له... ولا أيدي كما يقول جدي.

••••

أعجبتني في سعد خفة حركته، وابتكاره لألعاب كثيرة، والتفاف عيال الحارة حوله، يشاركني في قروشي اليومية، كي أضمن وجودي في أية تقسيمة للعب الكرة أو في أي لعبة ليلية، أما بدير فما أسرع وأعلى قفزه.

ثلاثتنا كنا نجتمع: سعد وبدير وأنا، بعد أن يشتري كل منا قرطاس كشري، نفرغ القراطيس الثلاثة في كيس بلاستيكي مبسوط، ونقلب طعامنا. يضحك سعد وهو يزدرد الأرز والمكرونة، ويقول: ما رأيكم في هذا الغداء ؟

تأوهتُ بسبب الشطة الحارة التي ألهبت حلقي، ولكنني أسرعت ألتقف المزيد قبل أن يأتي الأخوانِ على ما تبقى.

فعلتُ هذا، بعدما عدت شبه جائع مرات وأنا أشاركهما في الطعام، مرةً عندما أصرّ سعد أن نشتري طعمية، بدلا من السندويشات، وكم كان بارعا وهو يكوّر اللقمة ويحشوها بقرص طعمية، ومعها بعض السلاطة، ويدفعها لحنكه.

ومرة أخرى اشترينا فيها محشي الكرنب، ساعتها كانت بطني خاوية، وأشحت فيها بصري عن المرأة الريفية التي افترشت ناصية السوق، وقد كشفت الغطاء عن حلّتها الممتلئة بالمحشي، فيما حام الذباب عن قرب منها، المنظر مقزز، رائحة الحلّة تختلط برائحة الخضار المعطن. عاد سعد حاملاً أصابع الكرنب على ورقة، ومعها رغيفان، وكان نصيبي في نهاية الأمر، شطر رغيف به إصبعا محشي، وضحكت على سعد الحائر بين الخبز والكرنب، بأيهما يبدأ.

• • • •

ارتقيتُ سلالم بيتهم الحجرية، والتي التفّت بي حتى أوصلتني إلى الطابق الثالث، باب الشقة مفتوح، الشقة موصولة بالسطح المكتظ بعشش الفراخ، أم سعد مفترشة الأرض، وأمامها " بميّة " في صينية، تشبك حباتها بخيط طويل كي تعلّقها لتتجفف، أمه ثخينة البطن والأرجل، تشبه أباه بشكل كبير، أخبرني سعد أنها ابنة عم أبيه، وأن عائلتهما موصوفة بالسمنة، دلالة على الغنى والعز، علق السؤال في أعماقي وأنا أتعجب من نحافة الأخوين سعد و بدير، وإن زال تعجبي بعدما تذكرت نهمهما للطعام، واسترجعت مقولة عيال الحارة إن لحمهما تحت عظامهما.

أجلسني في الصالة، والذباب يتطاير حولي، حملقت في التلفزيون، فيلم " إسماعيل ياسين في الأسطول البحري "، غرقت في الضحك عليه وعلى عبد المنعم إبراهيم الأزهري المعمم، وشاركني سعد وبدير وأمهما في الضحك، مرَّت أخته الكبرى " مُنى"، بيضاء لينة القوام، صوتها رخيم، ضحكتْ قليلاً، ثم حملتْ خيطان البمية إلى الشرفة، تعجبي : لا تشبه أمها ولا أباها، كلاهما حنطي بكرش كبير وأرجل غليظة.. كعادتي الصمت يعلو وجهي، وإن نطقتُ متسائلاً بسعادة بعدما انتهى الفيلم: أين تلفزيونكم الملون الذي أخبرتني عنه يا سعد ؟

• • • •

عاد جارنا أبو خالد من ليبيا بعد سبع سنين، شاهدناه يعيد بناء البيت، فازدحمت طرقات الحارة بالأسمنت والحديد، وارتفعت أعمدة الخرسانة لثلاثة أدوار، وبدأ تشطيب البيت. جرَّني سعد لالتقاط بقايا الأسمنت والجير والبويات، سألته عن السبب، وأنا أقلده فيما يفعل، أخذني إلى بيت القاضي بسوره الحجري القديم، وخطَّط خطوطًا طويلة على السور، وشرح للعيال المتجمعين، كل واحد يأخذ مساحة من السور، ويصبغها، وتكون شقة له، هكذا تخيَّل، وجعلنا نحلِّق معه، رسم سعد على قطعته: غرفة النوم والصالة.. فعلنا مثله، واشتد حلمنا، وأسرعنا لجلب المزيد من الأصباغ.

في نهاية النهار، لاحقنا أبو خالد وعياله، وسبونا: يا حرامية .

••••

تجمهر الناس أمام بيت سعد، كانت أمه تفترش العتبة، وتصرخ مولولة، ابنها " صلاح " الكبير طفش من ثلاثة أيام، نفت أن يكون أبوه قد شتمه أو ضربه، ارتكن بعض الرجال، تهامسوا؛ أن يكون ركض وراء بنت أو امرأة، وتذكروا هروبه من المدرسة الصناعية، ومعاكسته لبنات الحارة من فوق السطح. استمرت الأم في العويل، وبرزت ابنتها " منى " البيضاء؛ تُربِت عليها، وتمسح دموعها القليلة، وإن خبا نشيجها، تجاورت الأم بصراخها الجاف، مع الابنة بصوتها الهامس، ساعة وانفض الجمع، بعدما قدم الزوج أبو صلاح، ونهر زوجته، فصمتت سريعًا، وصعدت إلى بيتها.

بعد يومين، أعلنوا في الحارة، أنهم وجدوا الابن صلاح في الجيزة، عند الأهرامات.. ونلمت الحارة على شتائم الأب لابنه والأم التي أنجبته، وإن تهامسوا بأنه سرق مئة جنيه من محفظة أبيه، وأنفقها في شارع الهرم.

••••

طالعني أخوه الأكبر " محمود " وأنا واقف على باب شقتهم، تلجلجتُ وأنا أستفسر عن سعد أو بدير، لم يرد، بل نظر باستهانة لهيئتي الصغيرة ثم غاب داخل الشقة تاركًا الباب مواربًا.. وقفت في حيرة، جاءت " منى "، اهتززت، نادتني باسمي وكأنها تعرفني، تكبرني بسنوات، وإن بدت كاملة الأنوثة، تلعثمي.. ابتسامتها.. أعلم أن أباها أجبرها على ترك المدرسة الإعدادية، استعدادًا لزواجها من أحد أقاربها، سألتني عما أريد، اشتد اضطرابي، غمغمت باسم أخويها سعد وبدير، قالت إنهما في الدكان، وسيعودان بعد قليل، دعتني لانتظارهما في السطح.. شكرتها، وتعثرت في نزولي على درجات السلم.

تكررت زياراتي، أتسمّر عند الباب.. مرات أحادثها، ومرات تمرق أمامي، دائمة الابتسام، وثمة خصلات من شعرها تفرّ من طرحتها التي لا تحكم لفّها.

أتهتم بي ؟... لعلها..

••••

– سنلعب اليوم في سوق الخضار.

كنتُ مع سعد، ولا يزال عيال الحارة حول طبليات الفطور والفول، لم أسأله عن السبب، واثقًا كنت أن هناك لعبة جديدة سنلعبها. اشترينا بقروشي سندويشين طعمية، التهمناها سريعًا، ثم نظرنا لبعضنا؛ لا زلنا جوعى.

السوق مزدحم، عينا سعد تشع شررًا، يغوص في الزحام، اقترب من بائعة الطماطم، مدَّ يده منتقيا بعض الثمرات، متظاهرًا بالشراء، وسرعان ما استقرت في جيب جلبابه ثمرتان، تسلل من بين الأرجل، ناولني واحدة، وهو يضحك ساخرًا من البائعة، متفاخرًا بخفته... ترددتُ في الأكل.. سخر مني أيضًا.

لا زلنا في السوق، أخرج " موسى " من جيبه، واتجه نحو رجل ضخم الجسد، يدخن الشيشة في مقهى وسط السوق المزدحم، وقد تدلى بطنه أمامه، وتنقلت شفتاه بين الشاي ونفث الدخان، اقترب سعد منه، وراح يشق سيّالة جلبابه (الجيب الجانبي)، والرجل لاه، فاتساع جلبابه وتهدله، يجعله غير شاعر بالموسى الذي يتلوى بهدوء حتى رأيت النقود المعدنية تنحدر من السيالة ومنها إلى يد سعد ثم خبّأها في صدره، وسار مع السائرين في زحمة السوق.

عدَّ غنيمته؛ حوالي خمسين قرشًا، موزعة ما بين خمسات وعشرات الفضية، يا له من مبلغ يمكن أن نأكل به مكرونة باللحم في مطعم، ونجلس على الكراسي واضعين أرجلنا فوق بعضها، بل فوق الطاولة نفسها.

حين أمسكتُ بالشوكة، ملأتْ أنفي رائحة الخضار المعطّن، وأوشكتُ أن أتقيأ، فيما كان سعد وبدير نهمين، وهما يزدردان.

• • • •

مرات كثيرة تعاركت مع سعد وبدير، وكنا نتصالح بعدها بيوم أو أيام، نبدأ يومنا باللعب، ثم نختمه باختلاف وسباب وتضارب بالأيدي أو تبادل الطوب، وكنت أنتصر نظرًا لكبر جسدي بالقياس لجسدي الأخوين الصغيرين..

وفي المرة الأخيرة، اختلفنا في الفائز في لعبة العسكر والحرامية، من لمس حائط الأمان قبل الآخر... اغتظت، فالحق معي، وكانت الأسبق، اشتد عراكنا، ضربتهما بقسوة، فأصرا على ملاحقتي، استطعت الإفلات ولذت ببيت جدي حتى اشتد سواد الليل، وسكنت الأجساد، حيث تسللت إلى بيتنا، في اليوم التالي، تحصننت بعيال حارتنا، وشكّلنا عصابة جديدة، وقد تعاظمت كراهية الأخوين في أعماقي.

• • • •

سنوات مرَّت.. كنت في سني الشباب الأولى.

لم أعرفها.. اشتدت سمنتها، مالت للسمرة، تحمل رضيعًا، وتجرّ آخرينِ، وزوجها بجانبها، يرتدي جلبابًا بلديًا واسعًا، ويلف لاسة حول رقبته، إنها " منى "، لا شك أنها تزوجت من أبناء عمومتها.. بدت في سيرها والأساور تتزاحم في رسغيها، أشبه بأمها، وبدا زوجها أشبه بأبيها... تسمّرت، كان لابد أن تراني، ابتسمتْ بعد تقطيب، نفس ابتسامتها وهي تمرق بين الصالة والسطح.

ساعتها اشتقت لكذب سعد وشقاوته، وثأثأة بدير وقفزاته العالية.

* * *

وحوي يا وحوي .. إيوحة

رؤية رمضان

– سنذهب كلنا لنرى " رؤية رمضان ".

هكذا قال الأولاد في الحي..

تزاحمت في عيوني مشهد الرؤية، إنه اليوم الذي يسبق أول الشهر الكريم، يشبهونه بيوم طلعة محمل الكعبة المشرّفة في القاهرة، وقد شاهدتُها في التلفزيون في فيلم تسجيلي قديم بالأبيض والأسود، مسجَّل من سنوات الستينيات، في موكب مهيب يخترق شوارع القاهرة القديمة، والناس متجمعون؛ ناشدون التبرّك، بموكب يضرب في حفريات الزمن القاهري منذ قرون، هكذا شاهدت، وهكذا اختزنت ذاكرتي ما رواه أبي الذي حضر طلعة المحمل مرات خلال سني إقامته في المحروسة، وسمعته أيضًا من جدي الذي رواه عن أبيه، وعن أهل الخير الذين كانوا يسافرون للعاصمة خصيصًا لحضوره.

••••

في رؤية رمضان، يتجمع أهل الفيوم (المدينة) في ميدان " قارون " خلف السواقي التي تدور دافعة المياه من ترعة بحر يوسف، ثم تقذفها في قنوات خرسانية، فتتلوى موجاتها، وأستعيد في ريقي لذة ماء النيل.

منذ الخامسة من عمري؛ اعتدت الذهاب مع أخي الأكبر، أتعلق بملابسه خائفًا أن أتوه في الزحمة، يصرخ فيّ لأترك يدي القابضة على كُمّ قميصه، أتشبث أكثر، لا أرى إلا الأكتاف، بحنو يحملني على كتفه، أشرف من عليائي على الرؤوس، رصيف الشارع يلمع تحت أشعة شمس العصر الصفراء، الناس يصفّرون ويلوحون، رافعين بيارق خضراء وصفراء، وعلم مصر القديم ذا الهلال والنجوم، وعلمها الحالي ذا الألوان الثلاثة، يمر مشهد الرؤية : عربات الجيش والشرطة مزدانة بالأعلام.. أشعر بخجل والعيون تتطلع نحوي، ضحكات من رفاق أخي، تمردت من عليائي معترضًا، فأنزلني أخي... هكذا تلاعبت الذكرى بي.

••••

هذه السنة، قرَّرتُ وأنا في الصف الثالث الابتدائي ألا أذهب مع أخي الأكبر، لن أتقيد به، سأذهب بمفردي، أعرف السِّكة جيدًا، فكم مرة سرتُ في شارع البحر، وجلستُ عند السواقي آكل اللب، أو أقفز إلى داخل الحديقة أتطلع إلى عمارة الأوقاف أعلى عمارات بلدنا ذات الطوابق الاثنتي عشرة، وأسفلها المحلات التجارية، بزحامها الدائم.

كعادته، تعلّق أخي " أحمد " الصغير بي، عمره أربع سنوات، يأتي معي واثقًا أنني سآخذه إلى أمكنة إن لم يحبها؛ سيجد فيها تسالي وألعابًا. ابتسمتُ له، واستجابتْ كفي بمعانقة كفّه.

في الطريق، راح يشير إلى معالم شارع البحر الرئيسي المتوسط لمدينتنا، أجيبه، وأحكي له ما سمعته من أخي الأكبر، عن الأبنية العالية، والقصور المزخرفة، والبيوت ذات الشرفات الواسعة، يستمتع بكلامي، يظنه حواديت، وأجد متعة وأنا أجيب عن أسئلته المتصلة... شدّني بقوة، توقفتُ، رفع ذراعيه عاليًا، يريد أن أحمله، حملته، استراح على صدري، واصل إشاراته، وواصلتُ حكاياتي.

اقتربتُ من مكان الطلعة، الزحام كثيف، عليَّ أن أقترب من المقدمة لأشاهد كل شيء، استجابت عيون الناس وعطفتْ على جسدي الصغير الحامل لطفل أصغر، وسمحت لي أن أتقدم حتى صرتُ في الواجهة، كان العيال رفاقي ورفاق أخي على الجانب الآخر، " لا شك أنهم يحسدونني الآن على مكاني ".

ما لبثتْ أن ارتفعت أصوات الطبول، وتراءت البيارق، وتتابعت سيارات المطافئ، مكسوة بعناقيد الخضرة والورود، وقد رفعت كل سيارة صوت السارينة عاليًا، لنغرق في موسيقى صاخبة، تلتها سيارة المدفع، الذي سينطلق مغرب كل يوم معلنًا الإفطار ثم يدوي قبل الفجر معلنًا الإمساك، مدفع قديم، ماسورته سوداء، وعجلاته بنيّة..

همستُ لأخي – الذي ارتكن برأسه على كتفي – أنه متوارث منذ أيام الملك المعظّم، هكذا أخبرني جدي، يضع الجندي القنبلة من الخلف، ثم يشدّ الحبل، لتنطلق الدانة منفجرة، يقولون إنها قنبلة " فشنك "، لا تأثير لها، وهذا ما جعلني غير مندهش من وجود المدفع في ساحة مديرية الأمن.

جاءت عربات الجيش تنثر الزهور البيضاء والحمراء والصفراء، والناس تهلّل، وتكبّر، ثم سيارات البلدية تنثر الماء في الهواء، فيتطاير قطراتٍ، مرطِّبًا الجو والرؤوس، أضحك مع الناس، وأنا أتحسس شعري والماء البارد يقطّر منه.

سأعود متباهيًا أمام والديّ وأصحابي؛ لذهابي دون مساعدة من أحد إلى الطلعة، ولأخذي أخي " أحمد " معي، وكانت أول مرة يشاهد الرؤية على يدي.

خبا صوت الطبول، مع انتهاء عربات الموكب.. الناس تصافح بعضها مهنئين بالشهر الكريم، فغدًا صيام وقيام، وإفطار وسحور. وعليَّ أن أبدأ الشهر بصيام الأيام الأولى، ثم أتفاوض مع أبي في إفطار أيام أخرى.

هكذا رويت لأخي أحمد، الذي ما زال على كتفي، وأنا أنفذ بين الأرجل، متخذًا طريق العودة.

• • • •

قابلتُ رفاقي، ورفاق أخي، توقعتُ كلمات الثناء... كلهم يضحكون.. ينظرون إليّ... سألتُ أخي متعجبًا : لماذا ؟

حين اقتربتُ منهم، قالوا لي في أصوات متداخلة :

– طوال وقت الرؤية، تتكلم مع أخيك وهو نائم !

يضيف أحدهم :

-... وغارق في النوم !

أمسكتُ برأس أخي، عيناه مغمضتان بعمق، وتقاطيع وجهه مرتخية، ورائحة عرقه اللزج تملأ أنفي.

قال أخي الأكبر :

– ناديتك كثيرًا في الطلعة أن الولد نائم لتنتبه، لكن صوتي ضاع وسط الطبول.

* * *

حمّص وفانوس وكنافة

(١)

ليلة النصف من شهر شعبان، انطلقنا إلى " المولد " حول جامع الروبي، غصنا في الزحام، أمسكتُ جلباب أخي الذي تقدَّمني، علينا أن نستمتع في هذه الليلة، فالماء المثلج مجانًا، يوزعه السقّا وهو يردد : " اشرب وصلِّ على النبي، حلوة الصلاة على النبي "، أتجرع عدة أكواب تبرّد جوفي بعد لعب طويل في المراجيح الحديدية، وألعاب " الزقازيق " القلابة الخشبية، ثم أعدو إلى موزعي سندويشات الأرز واللحم، أنال واحدًا، وأنسلّ وسط الزحام، ولا أنسى – كعادتي – شراء كيس كبير من الحمّص، سأطحن حبَّاته مستمتعًا بمذاقه.

ساحة جامع الروبي تمتلئ بأتباع الطرق الصوفية، تمايل وإنشاد وطعام، لافتات معلقة تعلن عن أسماء أصحاب الطرق : الشاذلية، الحامدية، الحسينية، القادرية الأحمدية، الهاشمية... أمرُّ بين خيامها، كلها من الريف، نسوة يرتدين "الملَس"، ورجال يتلفعن الملافع، وقد تهدلت أكمام جلابيبهم الواسعة مع اشتداد تمايلهم. سيمتد السهر الليلة، وستصل إلى بيوتنا أصواتُ المنشدين والتواشيح، ثم بكاء فصراخ... علَّق أخي :

- رأيتُ بعضهم مع زجاجات العرَقي خلف المسجد.

علينا أن نعود إلى بيوتنا، قبل السهرة، التي ستنتهي حتمًا بسقوط كثيرين على الأرض صرعى الوجد كما يقولون، وعند الظهيرة سيظلون مستلقين في خيامهم، يتجاور النسوة والرجال في نومهم.

(٢)

هذه حارتنا، على ناصيتها بضعة خيام للصوفية، وإن نجا آخرها، حيث يقبع بيتنا. وصلنا البيت، الشباب مجتمعون أمامه، لاشك أنهم يتباحثون في زينة رمضان، ولابد أنهم سيرفعون التكلفة، لتزيد مساهمات البيوت فيها، ولن يهتموا باعتراضات الناس عن قلة حبال الزينة المعلّقة.

دوري كان دائمًا ينحصر في حمل الأوراق البيضاء المقصوصة وقد تلوّنت بـ" البَفتة "؛ ودُهن طرفها بنشا لاصق مصنوع من عجين الدقيق والماء الساخن، ثم أعطيها لمن يلصقها على حبل الزينة، وعليَّ أن أسند السلّم الخشبي، عند تثبيت الحبال بين جدران البيوت، وستستأثر بيوت هؤلاء الشباب بتعليق الفانوس الكبير والمسجد الصغير أمامها، تتلألأ في ليل رمضان، وتظل الظلمة أمام بيوتنا إلا أنوار البلدية الصفراء.

اجتمعنا، أنا وأخي وحمدي، وطارق وعصام وعماد، وقرَّرنا للشباب:

– سنزيّن أمام بيوتنا نحن، ولن ندفع شيئًا.

سخروا، وضحكوا وهم يشيرون إلى قِصرنا الذي سيمنعنا من تعليق الحبال. رددنا بإصرار : ستحكي كل الحارة عن زينتنا.

• • • •

اجتهدنا مفكرين، أنا وأخي وحمدي، المبلغ قليل، اختلفنا في أشكال الزينة، حتى قطع أخي بالرأي

:

– نشتري فانوسًا ونعلِّقه وسط الحارة، ونضيء مصباحه بتوصيلة من بيت حمدي.

تشبثتُ بحبال الزينة، فأصروا أن الفانوس يغني عنها، إلا أنني انطلقتُ إلى سطح بيتنا مع الولد " محمد "، وأحضرتُ كتب المدرسة القديمة، ومقصًا، وألوان البفتة، قصصتُها ولوَّنتها وثبَّتها في خيوط، واتجهت نحو شرفة بيتنا، حيث مددت يدي بين حديدها، ثم علَّقت الحبال على نصف دائرة، ورحتُ أتأملها، وأحدِّث الولد محمد عن جمالها، وأنني سأباهي بها كل عيال الحارة فقد صنعتها وحدي.

ظللتُ باقي اليوم واقفًا، أنظر لما فعلتُ، وسط ابتسامات من أبي وأمي وإخوتي.. لم أفهمها، مثلما لم أبادلهم إياها.

• • • •

لم نصدِّق ما فعل الثلاثة؛ طارق وعصام وعماد، لقد صنعوا حبال زينة طويلة جدًا، واستطاعوا تثبيتها في أعلى نقطة في بيوتهم المتقابلة في الحارة، وعلّقوا جامعًا صغيرًا شديد الإضاءة وسط الزينة، جذبتْ نظر الجالس على المصاطب، والواقف في الشرفات، والماشي في الحارة، فيتمتمون متعجبين من ارتفاعها العالي. وحينما سألناهم عن كيفية رفعها بهذا العلو، نفخوا صدورهم قائلين :

ـ سرُّ اللعبة، وستظل زينتنا إلى رمضان بعد القادم.

(٣)

قبل أيام من انتهاء شهر شعبان، وانفضاض زحامه، ورحيل أهل الطرق إلى بلداتهم، بدأ باعة حلوى المولد والعرائس يفكّون خيامهم وأكشاكهم وصواوينهم، ومعهم كانت " سنية " أم عبد النبي (بائعة الكشري)، في نفس موضعها التي تقف فيه عربتها، تحوّله إلى صيوان كبير، تبيع فيها حلوى المولد بمعاونة زوجها العابس، وابنها عبده، وتصمم أن تركن عربة الكشري الخاوية من حلل الأرز والمكرونة في أقصى الخيمة، ومع قدوم رمضان، تفرغ " صيوانها " من بقايا الحلوى والعرائس المكسرة، بتوزيعها على عيال الحي، متجاهلة مطالب زوجها أن تبقيها كي يرجعها للمصنع ويقبض ثمنها.

تحضر عربة " كارو " محملة بطوب أحمر، فيقوم عمال ببناء فرن الكنافة البلدي دائري الشكل، وقد احتلّ نصف مساحة الصيوان، أما فرن القطايف، فقد انزوى في ركن صغير... سيتم توزيع العمل بينهم، أبو العبد زوجها لعمل الكنافة، يقف عاري الصدر يقطّر العجين السائل على الأسطوانة النحاسية أعلى الفرن، ويتولى عبد النبي عمل القطايف، أما أم العبد فهي تصنع العجين في الليل، وفي الصباح تعدّ الزبادي المسكّر في السلطانيات. وعليها أن تصمّ أذنيها عن شتائم زوجها وزوبعاته التي تشتد مع اشتداد الحر والصيام، وهو غير عابئ بكلام ابنه الذي يؤكد له أن لا صيام مع سبابه، ولا يملك أبو العبد إلا إلقاء ما تبقى من "كوز " العجين في وجه ابنه، الذي يتنحى مؤثرًا السلامة.

(٤)

شعر رأسي يتنازعه البياض، والعمر يتقدّم.. بعدما تناءت بي الأمكنة.

غدوت ليلة النصف من شعبان إلى الجامع الروبي، خيام متناثرة في ساحة المسجد، أسفلها وجوه مغضنة التجاعيد، تتشبث بالحضور سنويًا، متجاهلة ذوي اللحى الذين يمرّون عليهم، ساخرين من بدع التمايل والصراخ، وارتفعتْ بعض التواشيح الدينية بصوت رجل أنهكه الهِرم.

هذه حارتنا، أتطلع إلى نافذة بيتنا، أتذكر ضاحكًا : كيف أن الزينة التي صنعتها وعلقتها لم يلتفت إليها أحد في الشارع، وضحك الأولاد وهم يرفعون عيونهم وقد غطوها بكفوفهم من شمس يوليو الحارة، لعلهم يرون حبالي المدلاة على جدار الشرفة، وقد غطّتها حبال الغسيل، أما زينة الثلاثي طارق وعماد وعصام فقد ظلّت عامًا كاملاً، متحدية عصف الريح، وإن ذبلت ألوانها، وجفت أوراقها، بحكم الشمس والمطر، وقد علمت بعدئذ أن آباءهم ساعدوهم في تعليقها، حتى أغاظت الشباب، وجعلتهم ينزوون خجلاً.

تلاشت صواوين الكنافة البلدي، واكتفى عبد النبي في محل الكشري المطل على ساحة الروبي بنصب فرن آلي لعمل الكنافة، رفيعة الشعر.

• • • •

لففت الحي كله، علّني أجد فانوسًا خشبيًا، يتوسط الحارات، ينفح ظلامها أضواء ملونة، تتألق مع حبال الزينة، أو أحصل على حمص يشبعني، أو كنافة بلدي ثخينة الشعر، تملأ رائحة حشوها فناء بيتنا.

* * *

صندوق الحليب

النسماتُ الليلية تداعب شعورنا، وقد ملأنا الحارة ضجيجًا، فغدًا أول أيام رمضان، سنسهر للسحور، فقد قرَّرنا جميعًا الصيام... وهكذا تقافزنا وركضنا وصرخنا طويلاً، دون اعتراض يصلنا من وراء المشربيات في الطوابق العلوية لرجال يريدون النوم مبكرًا، حتى يكدِّوا لرزقهم مع إشراقة الصباح، أو نسوة يصرخن في عيالهن؛ ليخلدوا للنوم مع آبائهم.

سأصوم غدًا، وثوابي على الله، وسأسهر إلى ما بعد الفجر، حتى أقضي النهار نائمًا، وأستيقظ لألحق بأبي في صلاة العصر. أعلم أن كثيرًا من العيال يتظاهرون بالصوم، وبعضهم يتلوى أمامنا جوعا – كما يقول – في النهار، ويتحمل لهيب شمس يوليو وتجفيفها للحلوق، أملاً في رضا الله، ونحن نجادله أنه طلب لرضا الوالدين والأعمام و...، ورغبة في " عيدية " سخية في أول أيام الفطر.. وهكذا تتوزع أيامنا الرمضانية بين نوم وصخب، وصيام وفطر، وبطون تئن قبيل المغرب، ثم أفواه تركض للتمر والماء البارد والخشاف والمشمشية وأطباق الطعام عقب مدفع الإفطار.

أمامنا ساعات على السحور، وأغاني رمضان تملأ سماء الحارة؛ " رمضان جانا... أهلا رمضان "، واصلنا لعبنا، فرحين أننا لن نحمل هذه السنة الفوانيس، فقد كبرنا عليها، وسنتركها – كما اتفقنا – للأصغر منا، يطوفون على البيوت، ويحصّلون النقود ويختلط غناؤهم " وحوي يا وحوي.. إيوحة .. " مع أغان تخرج من أجهزة الراديو مخرخشة الصوت.

عليّ أن أزاحم الناس لشراء الفول، سحورنا الليلة فول بالبيض والسمن البلدي، ستفوح رائحته من المطبخ قبل أن تضعه أمي على الطبلية، وسيهجم إخوتي عليه، ونترك ما عداه من جبن وحلاوة طحينية.. كلها جافة كما أقول دومًا. وقفت في الطابور أمام " قرني " الفوّال، عليّ أن أصبر لأن فوله " كهرمان " كما يقولون، وإن كنت ألاحظ بُخل يده وهي تمتد لأعماق " القِدرة " لتغرف الحبَّات الناضحة بالبخار، ثم تضعها في صحون الصاج.

حملتُ الصحن، فول صافٍ دون زيت أو طحينة، فقط يعتليه بعض الكمون والملح، استمتعتُ برائحته التي نفذت لأعماقي، تعيد لذاكرتي أشهر رمضان السابقة في سنوات عمري المعدودة، كلها سحور بفول ساخن، وأرغفة " مقمّرة ".

••••

توقفنا عن اللعب، لرؤيتنا دراجة يركبها عبد النبي ابن "سنية " بائعة الكشري، وقد ربط على الحمّالة الحديدية الخلفية للدراجة صندوقًا خشبيًا محكم الإغلاق. أشار للولد "حسين "، فأسرع فرحًا، ورفع صوته مناديًا أمه، التي برز رأسها من الطابق الرابع، وقد أخفت نصف وجهها بطرحة. وقالت :

– سألقي " السّبَت " لكم.

دقائق، وتهادى السبت متدليًا بحبل، يتراقص مع اصطدامه بالجدار، حتى أمسكه حسين، وسرعان ما انفتح الصندوق، ورأينا – على أضواء الشارع – أطباقًا زجاجية صغيرة، بغطاء بلاستيكي، تستقر في قعر السبت، اجتهد عبد النبي في تثبيتها بحشر أقمشة في جوانبها؛ كانت في السبت، وهو يردد أن نبتعد حتى لا ينسكب الحليب، استبقى " حسين " طبقًا له.. ثم صعد السبت متأنيًا، حتى تلقفته أم حسين.

التففنا حول الطبق الزجاجي، وامتدت أصابعنا له، لحسنا مرات ومرات، حتى التمعت جوانب الطبق، إنه زبادي مسكّر، يختلف عن الزبادي لاذع الطعم الذي نشتريه من البقّال، وعندما سألنا عن سعره، كان أغلى أربع مرات من زبادي السلطانية البلاستيكية قال حسين:

– كل رمضان أبي يوصّي أم عبد النبي لصنعه لنا، هذا سحورنا كل يوم.

تذكرتُ، ففي كل عام كان أبو عبد النبي يأتي بالصندوق، ولم نلق له بالاً، فقد كان عبوسًا، سبَّابًا للعيال، شتَّامًا لمن يعترضه، فلم يقترب أحد منه، يضع الزبادي، وينشغل بعدّ القروش قبل أن يودعها في " سيّالة " جلبابه العميقة، ثم يبصق متأففًا ويمضي.. عبد النبي ابنه أحسن منه؛ طيب، سمح الوجه، لذا اقتربنا منه، وتلذذنا بحليبه. لو وضعوني داخل صندوق سأفرغ أطباقه، وأملأ بطني حتى فمي.

• • • •

حلقي مسكّر بالزبادي، وأنا أغالب النوم، وقد التفّت أسرتي حول طبلية السحور، إخوتي متحفزون للفول الساخن، والأرغفة المقمّرة، والجبن القريش، وحين وُضِعت طاسة الفول وسط الطبلية، انتبهت للقيمات المتكورة في الكفوف، ثم المستقرة في الأفواه، وامتدت يد أمي برغيف، تناثرت " الرّدة " منه، أمسكته، وغمست أصابعي.

ملأ السمن والبيض خياشيمي، وتلذذت كثيرًا بالتوابل، وراحت يدي لطبق الجبن وقد افترشت أقراصه سمنًا سائلاً؛ ابتلت لقمتي به قبل أن تنال جزءًا من الجبن..

وتلاشى الزبادي من حلقي، إلى نهاية الشهر.

* * *

الكشري و التين

افترشتْ الساحة الخالية أمام مسجد الروبي، تلطم، وتنثر التراب على رأسها، مرددة اسم وحيدها " عبد.. يا عبد.. "، إنها " سنيّة " بائعة الكشري. تركت عربة الكشري، واقتعدت الأرض جانبًا، ولمّت الناس حولها تندب وتبكي ابنها الوحيد:

– أبوه الله يسامحه، ضربه في الصباح، وسبّه... الولد كان يساعدني في تجهيز حِلل الكشري، ووضعها في العربة.

واصلت باكية:

– أبوه بـ " قرينة "، ربنا يلطف لما يتقلّب مزاجه، كأنه ثور هائج.

سألوها عن سبب ثوران قرينة زوجها، فقالت:

– الله يسامحه، اتهم عبد النبي بأنه باع الكشري بثمن رخيص للناس، وبسرعة لطمه، وسبّه، والولد بكى، وخرج من البيت، وقال: حرام عليك يا أبي، ربنا يوزّع الرزق بالعدل، وأنت تبيع أغلى من السوق، والناس غلابة، وهم أهل الحي وأحبابنا. وأبوه يسبّه ويقول له: يا وسخ يا ابن... تبيع لأصحابك " تبقشش " عليهم من خيري.

واصلت " سنية " والنساء يتعجبن:

- الولد خرج وقال لن أرجع البيت مرة ثانية، لن أعيش معكم، أنا كبرت وصرت رجلا، وسأعتمد على نفسي.

طمأنوها بأنه سيرجع، فكل الآباء يفعلون هذا مع عيالهم، ثم تصفو النفوس بعدها، والظُّفر لا يخرج من اللحم. ولولت وقالت:

ـ الولد أخذ صرّة فيها جلابياته، وهرب، جريت وراءه، اتجه نحو موقف عربات " إطسا "، " ابحثوا عنه يا أولادي.. ربنا يستركم، الولد سيضيع مني ".

كنتُ وأنا أخي من الواقفين، ومعه صاحبه " حمدي "، جرى الأولاد وهم يقولون : والله سنحضره، اليوم يكون عندك يا أم عبد.

تحمّس أخي وأنا معه أن نذهب مع الأولاد، فركضنا خلفهم، اضطر حمدي الذي يكبرني بثلاث سنوات أن يرضخ لرغبتنا.. سرنا حثيثًا نحو موقف إطسا، حيث العربات التي ستغوص بنا بين الغيطان، سررتُ بالمغامرة المتوقعة، وازددت شجاعة، في معيّة أخي وصاحبه اللذين يكبراني.

وصلنا الموقف، سيارات نقل الركاب تملأه، الفلاحون بقففهم، ووجوههم الناضحة بالطيبة، المفعمة بالبساطة. انحشرنا بأجسامنا الصغيرة في سيارة أجرة، همستُ لأخي : ليس معنا مال. ضحك أخي وقال : أنا ركبتُ معهم من قبل، لا يأخذون الأجرة على الصغار.. معي قرش واحد. نظرتُ لصديقه حمدي الذي ابتسم دون كلام.

تحرّكت بنا السيارة، وأسرع "الصبي التبّاع " بالتعلق في مؤخرة السيارة، تطلعتُ إلى الخضرة المترامية ، والأشجار المتسارعة في عيني. انتبهت على صوت التبّاع :

– الأجرة يا زبائن، الأجرة يا جماعة.

لم أهتم، حتى وجدت " التبّاع " يشير إلينا أن نعطيه الأجرة. قال أخي :

– نحن صغار..

ارتفع صوت الصبي، وضرب جانب السيارة، صارخًا :

– معنا عيال مفلسون، وقّف، وقّف.

هدأت السرعة، وتوقفت السيارة، وسرعان ما وجدت يد السائق في صدري، تدفعني أرضا.. وأخي وصاحبه بجانبي..

بدت الخضرة كابية ونحن على الإسفلت الملتهب، وقد خلا الطريق من المارة في ظهيرة تمتص شمسها الماء من الشفاه. ارتكنّا جانبا تحت شجرة، ثمت سيارات تمرق في الطريق، لا يلتفت سائقوها للأطفال الثلاثة اللائذين بظل متقطع تحت الأغصان.

قال أخي حزينًا :

– ماذا سنفعل الآن ؟ كيف سنعود ؟

قلتُ والدمع يتقرقرق مني :

– لقد تُهنا.. ضعنا.. كيف سنرجع لبيتنا ؟ لن يسامحنا أبي.

هتف حمدي :

– أنا أعرف الطريق، نحن في طريق إطسا، ويمكن أن نمشي.

تساءلتُ:

- في هذا الحر النار ؟

ربت أخي عليّ:

- يمكن أن نسير جانب الطريق، تحت الأشجار.

مشينا وحمدي يحكي :

– كنتُ في المدرسة الابتدائية في أول هذا الطريق من عند البلد، أدخلني أبي فيها لأني سني وقتها كان صغيرًا، ولم تقبلني أية مدرسة قريبة من حيّنا.

عادت الغيطان ضاحكة في عينيّ، وماء الترع متلالئا، وظلال الأشجار تتلقفنا من شجرة لأخرى، قلتُ لـ " حمدي ":

– وأنت صغير، كيف كنت تذهب وتعود للمدرسة وحدك ؟

ابتسم حمدي :

– كنتُ أذهب وأعود مع أبي الذي كان موظفًا في مصلحة البلدية القريبة من المدرسة.. لذا، أدخلني فيها.

واصل وقد شعرت أن حدة الشمس خفّت ونحن نصعد للإسفلت مضطرين بعدما قطع مصرف ماء طريقنا الشجريّ. حكى حمدي :

– ظللت في هذه المدرسة ثلاث سنين، وانتقل ابن عمي "ناصر " إليها، وكان شيطانًا، جنن مدرسي المدرسة...

–

نطوي الطريق سريعًا، وحمدي يحكي عن " ناصر " وكيف كان يتلذذ بتكسير زجاج المدرسة كلما تعرّض لضرب قدميه على يد الناظر أو الوكيل، فيصمم أن يقفز من فوق السور، ويشاهده وهو يقذف زجاج الشبابيك بالطوب، ثم يعود لمكانه في الفصل متظاهرًا بالبراءة، مدعيًا أنه كان في دورة المياه. ضحكنا كثيرًا، عندما أمسك عمّال مصنع الغزل بناصر، بعدما رأوه يقفز داخل المصنع من السور، ويهز شجرة التين الرمادي، ويسقط ثمارها، ثم يكوّمها في حقيبته القماشية، وكان قد أفرغ كتبه من قبل في الفصل. ضربه العمال فغرق في البكاء والصراخ، فعطفوا عليه، وتركوه يذهب بعدما أقنعهم أنه محتاج، يساعد أمه الفقيرة وأخته القعيدة، بل زادوه كيسًا من التين الناضج، ليبيعه في السوق.

من بعيد، بدت بيوت البلد متلاصقة تصنع ظلالاً وبرودة في حواريها الضيقة، اقتربنا من موقف العربات، أشار حمدي يسارًا، هذه مدرسته الابتدائية وهذا فصل ناصر، تعجبت من كم النوافذ محطمة الزجاج، ألا تزال تحمل ذكرى ناصر ؟ وهذا مصنع الغزل، وقد أطلّت شجرة التين الوارفة، وإن غابت ثمارها.

• • • •

عقب أسبوعين، كان عبد النبي جانب أمه على عربة الكشري، وقد لفَّ رأسه بلاسة قطنية، همستُ لأخي :

– كيف عاد ؟

ضحك أخي بغيظ :

– عرفتُ أنه لم يذهب لإطسا، وإنما اشتغل نجار مسلح عند مقاول.

– ولماذا رجع ؟

– أمه عرفت مكانه وأعادته واحتفظ بمبلغ طيب من عمله، ولن يقترب أبوه منه، كما وعدته أمه.

••••

تقلبت السنون بنا..

ها هو عبد النبي يجلس على طاولة خشبية أمام محل الكشري الذي افتتحه في ميدان الروبي، على رأسه لاسة بيضاء، وقد تدلَّت لحيته وإن تهذبت أطرافها، وتغير جسده وإن راقت ملامحه. وأعلى المحل كتب " كشري الأرزاق.. لصاحبه الحاج عبد رب النبي.. ".

مع الأذان، يغدو للمسجد، صافحني في الصلاة وقال وقد قرأ تساؤلي:

كما أن رزقنا على الرب، فأنا عبدُ الرب.

* * *

ومين شاف اللي أنا شفته ومين قاسى اللي قاسيته

عرقي بلـح

عائدًا كنتُ من حي البارودية بعدما طالت السهرة مع أصدقائي، سلكتُ شارع المدارس، وظلام الليل قد أوغل، والساعة تخطت المنتصف، أنوار الشارع عجزت عن تبديد كتل السواد الممتدة، فبدت الأشجار معانقة أسوار المدارس وتوحشت ظلالها فظهرت ككائنات خرافية مهتزة ؛ مع تلاعب الريح بالمصابيح.

ثمة رجل خلف سور المدرسة الثانوية الصناعية، اختار موضعه بعناية ؛ بين شجرتين متعانقتين عند منحنى السور، اقتربتُ منه، ظله ضائع بين السور والشجر، لم يشعر بوقع أقدامي في السكون، ذراعه متحرّكة صعودًا وهبوطًا إلى فمه، وقد أحاطت أصابعه بزجاجة، يتجرَّعها.

دقائق، والزجاجة أُلقيت، فجاءت بالقرب من موضعي، زجاجة خضراء، ملصق عليها " عرقي بلح ".. ترنّح في حركته، بدا وجهه في الضوء الباهت.. إنه عمٌّ عرفة، حارس مدرستي الابتدائية القديمة.

••••

ابنه " زكي " كان معي في الفصل عدة سنوات، لا يكلِّف نفسه الذهاب أو الإياب إلى بيتهم، فهو ينام مع إخوته الأربعة في غرفة أبيه القريبة من باب المدرسة، فلا داعي للإقامة في بيتهم بأطراف حي الصوفي، قريبًا من الغيطان، ماتت أمه فاستمرت إقامة الأولاد بالغرفة.

أسأله : لماذا لم يتزوج أبوك ؟

يضحك الولد، ويقسم أن أباه كان يخاف من أمه، والآن يخاف منا، نحن أولادها، يكرِّر قسمه بأنه لو فعلها سنهجّرها من البيت، ومن التي ترضى أن تتزوج خفيرًا ؛ معه أربعة أولاد عفاريت ؟

أولاده الأربعة، " زكي " زميلي، و" سيّد " في المدرسة الصناعية، و"محمود " و" علي " وهما في المدرسة الإعدادية. حين يستيقظون يتسللون من غرفة أبيهم متتابعين، يغسلون وجوههم في حنفية الحديقة، ثم يحملون كتبهم، كلٌ إلى مدرسته.

إفطارهم في الشارع دائمًا، " سيّد " ممسك برغيف مع طبق كشري عائمة شطته، مقتعدًا الأرض. " محمود وعليّ " يقاتلان وهما يتقدمان في زحام محل الفول والطعمية، أما زكي فهو يعتمد على ما يسرقه من كانتين (مقصف) المدرسة، أو يخطفه من الأولاد الصغار، مفضلاً أن يحتفظ بقروش مصروفه لما بعد المدرسة.

لا يجتمع الأربعة إلا في عراك بينهما وبين آخرين أو مساندين لأصحاب لهم، فحذارِ أن يواجههم فرد أو شلّة، وتنال الضحية سبابًا وضربًا وأحيانًا كسورًا في الضلوع أو الأذرع، ولا يرد أبوهم على شاكٍ أو متظلم، والناس مقارنة بين أبيهم الطيب، وشيطنة عياله.

• • • •

لم يكن يتجرع الزجاجة، إنه يمتصُّ خمرها بتلذذ، يحنو عليها بأصابعه التي تحيطها خشية أن يفقد بعض قطراتها، فعليه أن يلحس بلسانه فوهة الزجاجة.

العرقي أرخص أنواع الخمر، وغالبًا ما يأتي من المعامل تحت السلم المنتشرة في أزقة حي " الشيخة شفا "، يخمِّرها شديدو الفقر، فتؤدي غرضها وقت عربدتهم، وتنفعهم بقروش تعينهم على التقاط فتات الحياة.

يُغنِّي " عرفة " موقنًا أن الظلمة كاتمة للأصوات؛ أو هكذا توقع، والمدارس غارقة في سكون، لا يقطعه إلا نقيق ضفادع في حدائقها أو نباح كلاب في أحواشها أو مواء قطط متصارعة على جيفة.

يُغنِّي بنفس صوته الأجش وهو يطارد التلاميذ القافزين من فوق السور، أو عندما يسب بعض المتأخرين في الفصول عقب نهاية الدراسة.

يُغنِّي بجمل متقطعة من أغاني الريف ؛ " ياللي ع الترعة، حوّد ع المالح ".. " ادلع يا عريس يا بو لاسة نايلون "، " بس الولد ييجي "، " يا منجد ع المرتبة "...

إنه في شوق للمرأة.

••••

أم " سيّد " زوجته، تفترش عتبة غرفته بالمدرسة، عينها على زوجها الجالس أمام الباب الكبير، يرد على تحية المعلمين والمعلمات، وحين تأتي الناظرة أو الوكيلة يسارع بالوقوف، رافعًا يده إلى ما فوق جبهته، وقد تحاوره المديرة باقتضاب ويرد عليها بأريحية متعمدة، وأحيانًا ما تتجاهل وقفته، بل ولا ترد سلامه الذي يبتدئها به، متطلعة يمنة ويسرة، إلى الفناء وساحة العلم.

عقب الطابور الصباحي، يغلق الباب، متخذًا طريقه إلى زوجته التي تضع أمامها طبق الفول، وتفوح منه رائحة زيت التموين (زيت بذرة القطن)، وينخرطان في حديث باسم، ينتهي بانتهائهما من الشاي الغامق، فيعود " عرفة " إلى بابه، وتدخل هي إلى غرفتها.

حسبما فهمتُ من ابنه زكي، فإن أمه قوية على أبيه، فلا يخالفها في رأي، وتقف خلفه عندما يقبض راتبه من سكرتيرة المدرسة، لتدس جنيهاته القليلة في صدرها، وإذا اعترض لا تكلف نفسها عناء الرد، وإنما تشير إلى صبيانه الذين هم عزوته، وحاملو اسمه من بعده.

اعتادت الزوجة أن تذهب إلى بيته يومي الخميس والجمعة، أو تسافر إلى قريتهما النائية، تخبز في فرن أمها، وتحمل خبزًا طريًا يبقى أيامًا معهم.

أقنع " عرفة " الناظرة بزراعة قطعة الأرض المهجورة خلف الفصول، بعيدًا عن حديقة المدرسة حتى لا يعترض مدرسو الزراعة، أخبرها أنه سيعتني بأشجار السور، وسينظف الأرض... وسرعان ما زرع عيدان الذرة والجرجير والمقدونس والكراث، وتكفلت " أم سيد " بتقطيعه وربطه في رزم، ثم تناولها من فوق السور لبائعة الخضرة التي تنتظرها على عربة كارو...

وبذلك، استطاع عرفة أن يبني بيتًا له، مع توسّعه في المساحة المنزرعة، وسكتت الناظرة والمدرسون عندما وجدوه يعطيهم في نهاية دوام الخميس أكياسًا بها خضار منوّع... أما نحن فكنا نشاهده من نوافذ الفصول منحنيًا على زرعه زاهي الخضرة، وقد تدورت الأشجار بتقليمه المستمر لها، وتعطرت أنوفنا برائحة الغيطان عندما تمتلئ بالماء الصافي.

ماتت زوجته، مثلما يموت الناس مبكرين.. مرضت فجأة، وهي في دوّار أهلها، وسرعان ما جاءه الخبر وقد فرغوا من تشييعها، فإكرام الميت دفنه. تركته مع عياله الأربعة، متطلعًا إلى حياة مضت وأخرى قادمة وهو في منتصفها، بمعاشه الشهري البسيط، وبنيته الجسدية التي وهنت فجأة؛ وإن حافظت على الأنفاس في صدره.

• • • •

سألت " زكي " من يطبخ لهم بعد أمه، فحكى لي عن الأرز باللبن الذي يبرع أبوه في عمله، وعن البطاطس المقلية التي يعدها مع إخوته، وعن اللحم المسلوق مع فتة الأرز، وعن براعة أبيه في ذبح الدجاج وتنظيفه...

لم أُصَّدقه..

وأيضًا لم أكذبه.

• • • •

أوشكتْ الزجاجة على النفاد، توقف عن الغناء، وقطَّر في فمه ما تبقى منها، يسب الدنيا.. تسمّعت للكلمات المتناثرة، يتذكر " بهيجة / أم سيد "، ليلة عرسهما، رقصت هي وسط البنات، وتحزَّم هو راقصًا بين الرجال مُمسكًا العصا مرة، وبدونها مرات.

يبكي مُعدِّدًا عياله المتفرقين عنه، فمنهم من سافر، ومنهم من سُجِن، ومنهم من ركض خلف امرأة مزواجة، ورابعهم صاحب مزاج.

••••

ذاهبًا كنتُ إلى عملي وسط بلدتنا، آثرتُ أن أسلك شارع المدارس القديم، هربًا من زحام شارع البحر، حانت مني التفاتة، هذا هو عرفة جالس أمام غرفته، وجهه الحنطي جامد الملامح، لا يرد سلامًا ولا يلقيه.

••••

الزجاجة مستقرة على الأرض، بجوار مثيلات لها.

هو في ترنّحه غير عابئ، متجهًا للمدرسة الابتدائية؛ فعليه أن يكمل نوبة حراسته، مكافحًا أو مستسلمًا لوحدته الليلية، سيتأمل مباني المدرسة المتساندة إلى بعضها، وسيتململ في نومه، غير مستمع لنباح أو مواء أو نقيق.

* * *

بـرشـام و حشيش

على ناصية شارع " الشيخ سالم "، يجلس على كرسي خشبي، محشو بعفش الأرز، وقد أخفى كرشُه ما يعبث به في حِجر جلبابه المقلم بالأزرق، وأمامه طاولة مصنوعة من جريد النخل، عليها أجولة صغيرة من القمح والذرة الصفراء والشعير، أمَّا دكانه الصغير فلا تزيد مساحته عن ستة أمتار، يُطرِق رأسه إلى حِجره، غير عابئ بجلبة الشارع، ولا بنهيق الحمير المتجمعة في موقف عربات الكارو القريب منه، مما دفعني للتطلع لما بين كفيّه، ثمة قطع صغيرة بنية اللون، يلفُّها في ورق سلوفان أحمر.. لم ينتبه الرجل لجسدي الصغير الواقف أمامه، فعيناه غارقتان فيما يفعل، وبطنه يعلو ويهبط مع صدره وتنفّسه العالي.

إنه " أبو عارف "، تاجر الحشيش القاطن في حارتنا.

يستوقفني أبو عارف في سيره، يمشي الهوينى، دائم السعال والبصق، يحمل كيسًا ورقيًا أو لفة بورق الجرائد، متخذًا طريقه إلى دكانه، حيث يبسط لفته كلما جاءه أحدهم، بثقة يأخذ منه النقود، ويعدّها ببطء، و الزبون يتلفت خوفًا، ثم يعطيه أبو عارف المتفق عليه: قطعة كانت أو حبات أو برشامًا.

بيته قديم نوعًا ما، مؤلف من طابقين، نوافذه خشبية طولية، محمية بقضبان حديد، أما بابه فهو الباب الحديدي الوحيد في الحارة وسط أبواب خشبية سميكة، تدور حول مفصّلات يرتفع صريرها مع حركة الأبواب.

أتأمل الصُلب الأصم المكون للباب، وزخرفاته القليلة المتناثرة في جوانبه، البيت يكتنفه السكون، وبابه مغلق دائمًا.

••••

لمحته ذاهبًا إليه؛ جارنا " أبو ناصر " الخيّاط، بعوده النحيف وعينيه الجاحظتين والاحمرار يكسو بياضهما، ووجهه ضامر الملامح، لا أراه نهارًا إلا يوم الجمعة؛ حين يغدو إلى جامع الروبي حاملاً سجادته، مفضلاً الصلاة في الساحة الخارجية، يلتفت نحوي وهو يسبِّح مادًّا يده دون أن يقول " حرمًا "، فأصافحه وأقول: " جمعًا ".

يبدأ أبو ناصر يومه بعد العصر أو قبيل المغرب، ويظل في دكانه إلى ما بعد الفجر، وحين يأتي إلى بيته، أسمع عراكًا مكرر الألفاظ مع زوجته، فعليها انتظاره لتضع له العشاء لا الفطور.

لم أتوقع أن يذهب " أبو ناصر " إلى " أبي عارف "، لولا رؤيتي له يطرق نافذة البيت بطريقة معينة، حيث تفتح ضلفة، ويد بيضاء نسائية تأخذ المال، ثم تناوله المعلوم.. هذه كف " سنيّة " زوجة " أبي عارف "، امرأة ملفوفة القوام، في المرات القليلة التي نراها سائرة في الحارة، نشاهد طرحتها منسدلة بجاذبية على وجهها الجميل، تختلف في مشيتها عن زوجها،

حيث تسير بدلع ولا يجرؤ رجل أن يطيل النظر إليها أو يلقي كلمة ؛ لسلاطة لسانها المعروفة لأهل الحارة. تتهامس نسوة الحارة عن كونها الزوجة الثانية لأبي عارف، وقد أجبرته على تطليق زوجته الأولى، وأن أباها "عليّ برشامة " هو الذي جرَّ قدمي أبي عارف لدنيا الكيف، فقد كان الأخير مُغْرمًا بابنته، وتعلَّق بحبال شرفتها يومًا محاولاً الحديث معها.

بآلية، وضع أبو ناصر المعلوم في جيبه، مُتخذًا طريقًا معاكسًا، سالكًا طريق الصاغة، يبدو أنه يتعاطى في دكانه.

يقول أبي :

- هذه عادة أهل الليل، لا تحلو سهرتهم إلا بنفسينِ أو حبّتين.

••••

اليوم الجمعة، ساعة المغربية، دكانه مغلق، فذهبوا إليه في البيت؛ عدد من الرجال، عُمَّال وأسطوات وفاكهانية، طرقوا الباب والشباك دون مجيب، فرموا زلطًا وحجارة في شرفة الدور الثاني، فتحتْ اليد البيضاء ضلفة الشباك، اقتربتُ متسمعًا، ثم أُغلِق الشباك وبرز أبو عارف من الباب الحديدي، تناثرت الكلمات معترضة عليه :

- خربت علينا ليلة البارحة.

- هذا ما وعدتنا به.

- أول مرة تعملها معنا يا " بو عارف ".

- حرام عليك، أرجع من السفر، الولية تعيّرني.

سعل أبو عارف، وبصق، وهو يقول :

- أنا معطيكم برشامة " مية مية "، كل واحد يشوف ماذا أكل، تعرفون بضاعتي منذ سنين، والصنف عندي ممتاز.

هدأوا، فواصل حديثه وكالعادة غير عابئ بأهل الحارة ولا المارة :

- العشاء الدسم مع شرب العرقي والبيرة يخربان مفعولها.. عموما نعوضها لكم مرة ثانية.. والتجار كثيرون لمن لا يعجبه.

انصرفوا يضربون كفوفهم، وعدّل أبو عارف طاقيته ضاحكًا، محرِّكًا أصابعه، قائلاً :

- الرجل منًّا حِمله ثقيل.

ناداه المعلم " هاشم " الجزار، من شرفة عمارته وهو يقول :

- يا ضلالي، تخدعهم وتشرّبهم المقلب.

رفع أبو عارف رأسه إليه مستنكرًا :

- أنا ضلالي يا ناقص، خدعتك من قبل ؟

ابتسم " هاشم " وسأله :

- ما الحكاية ؟

- أبدًا، الطلب كثير ليلة الخميس، فكمّلت ببرشام عمولة.

••••

في عرس ابن المعلم هاشم، تصاعدت سحب الدخان الأزرق، ورقص الرجال على المسرح الخشبي المقام، وأزعجوا الراقصات وعازف الأكورديون، صعد أبو عارف للسلام على العريس، فوجده منتشيًا، ضحك وهمس للمعلم هاشم: ابنك داخ من نَفَسينِ !.

ضحك هاشم، وقال: هو جديد في الكيف.

تطلع أبو عارف للحاضرين، تبينوا وجهه وهم يزفرون دخانهم، فأمسك مكبر الصوت بجرأة ومزاج عال:

- ما أخبار الصنف معاكم ؟

حيوه برفع أيديهم، وكثيرون وقفوا مهللين، فلا عجب ؛ فكلهم زبائنه.

• • • •

ارتفع صدره ولم يهبط...

هكذا قال الناس وهم يصفون مشهد وفاته، تكرر سعاله وبصقه، ولم يكف عن سباب من حوله، ثم جمدت أنفاسه.

مشى أهل الحارة في جنازته، وأبَت زوجته أن تتبع النعش في مؤخرة الجنازة، فبقيت في البيت متقبلة العزاء، ومعها ابنتاها، أما عارف ابنه من زوجته الأولى فحار الناس في أمره، وهم يرون ملامحه جامدة، ومآقيه صافية.

• • • •

بدا قلقًا مضطربًا؛ رجل يقترب من الأربعين، أخفى وجهه بكوفيته، وهو متردد في مشيته، ناداه المعلم هاشم، ودون أن يسأله من هو:

- البقاء لله يا عم.

- فيمن ؟

- أبو عارف، الله يرحمه إن جازت عليه الرحمة.

- لا أعرفه..

- وأنا لا أعرفك، ولكن نصيحتي أن تبعد عن بيته فهو مراقب.

كشف الرجل عن وجهه، فنظر إليه هاشم، وقال :

- من أنت ؟

- محسوبك " أبو سلطان " تاجر موبيليا بسوق النافع.. وارتحتُ لك يا معلم، بصراحة أنا جديد في المزاج، ومدحوا لي صنف " أبو عارف "..

- قلت لك إنه مات..

- قالوا لي إن أهل بيته مستمرون.

أشار هاشم إلى بيت أبي عارف وقال :

- انقر الشباك مرة ثم مرتين ثم مرة.

••••

السنون تنقضي سريعًا على من كانت حياتهم متشابهة الأيام، وتكون متباطئة على العشاق وطالبي السعادة.. وهذا ما فعلته سنية مع أبو سلطان الرجل " العايق النزهي "، الذي فُتِن بيدها البضة، وقوامها المكتمل، وغنجها، وضحكتها التي سمعها مرات، وهي تخفي وجهها بطرحتها المنسدلة، فهام بها.

ها هم أهل الحارة يتندرون على " أبو سلطان "، الذي بات يمشي الهوينى، حاملاً الكيس الورقي، متجهًا إلى معرض الموبيليا التابع له، يجلس على كرسيه الجلدي، يضحك متذكرًا ليلة البارحة، لم يعرف السعال بعد، وإن بدا غشيمًا في بيعه للصنف، محتميًا بصلات زوجته " سنية " مع الضباط والمعلمين الكبار.

* * *

الختمة الشريفة

صمَّم على عمل الختمة، حاولت زوجته إثناءه فأبى، فليس أقل من رجال الحارة، الذين أقاموا ختمات القرآن في بيوتهم، ونالوا الشرف والبركة.

زوجته " تحيات " التي عجنته وخبزته على مدى سنوات، شابهته في بخله، وفي ركضه خلف المال، وقد تيقنت أن النية مبيتة عنده، فلا داعي لخسارته وقد يتسرع لإلقاء يمين إن عارضته، فنظرت إليه بتفهم وهي تقول متظاهرة بالرضوخ :

- وأنت يا حاج " حسين " أحسن من رجالة الحارة والحي والبلد كلهم.

لم ينخدع بكلماتها، إلا أنه ابتسم لها، وابتسمت له، ثم تناجيا عن التكلفة وعدد المدعوين، وعن الطعام ومتطلباته، وإن اختلفا في الذبيحة، فهي تتمسك بالنعجة التي اشتراها منذ شهور، وهو مصمم على الخروف المعد لعيد الأضحى، وقد تشاركا في ثمنه... قالت بدلع :

- والله لأرفع رأسك، نذبح الخروفين، وخروف ثالث على حسابي.

نادت على ابنتها " حسناء "، ذات الأربعة عشر عامًا، والخادمة " أم سلامة "، اللتان أسرعتا بالحضور، فتتابعت أوامر " تحيات " لهما بإخراج أجولة الأرز والدقيق، وتجهيز "الماجور " لصنع العيش الملدّن.

وحين تساءلت " حسناء " عن السبب، أسكتتها أمها بوضع إصبعها عموديا على شفتيها، وحذرتها أن تحكي شيئًا، فأكدت البنت أنها لا تعرف شيئًا لتحكيه، أما " أم سلامة "، التي تعرف سيدتها جيدًا، فقد سألت " تحيات " وهي في الصندلة الخشبية التي تعلو المطبخ ؛ عن عدد أجولة الدقيق التي ستحتاجها.

شاهد حسين الموقف كاملاً مبتهجًا، متطلعًا بامتنان لزوجته، غامزًا لها بعينه.

••••

يوم الختمة أصبح البيت كأنه " مولد شعبي "، تصدرت "تحيات " المشهد، مرتدية عباءة سوداء فضفاضة، مشمرة الكمّين، وقد تدلى قرطاها الذهبيان لامعين من أذنيها، وبرزت الأساور الثقيلة في رسغيها، ووقفت في ساحة البيت، تشرف على فرش السجاجيد، ومدّ حبال المصابيح الملونة، وعلى عتبة البيت كانت مع الجزار، وقد ربط الخرفان الثلاثة، ونطقت هي بالبسملة والتكبير، فنحرت السكين الرقاب، وسالت الدماء، وارتفعت الزغاريد من النسوة المحملقات من الشرفات والشبابيك، وجرى الكلام بينهن عن كرم الحاجة تحيات وهي التي لم تحج ولكنها حصلت على اللقب اليوم، حيث روّجته صديقاتها، وهن يدعون لها بالخير والبركة، وأطباق من اللحم المطبوخ تُوَزّع على البيوت.

لم تدع لزوجها " حسين " مجالاً لإرهاق نفسه كما أخبرته، عليه فقط أن يستقبل المشايخ والمدعوين، ثم يشير للطباخ أن يحضر صينيات الطعام، الحاوية أطباق فتة الخبز والأرز والمرق وقطع اللحم الضاني، ثم تدور عليهم أكواب الشاي وفناجين القهوة.

بدأت شعائر الختمة.. أخرج الشيخ ذو الجبة البنيّة والعمّة الخضراء من حقيبة جلدية كبيرة الأجزاء الثلاثين للمصحف، كل جزء في كتاب مستقل، وقام بتوزيعها على رواد الختمة المتحلقين في دائرة، حيث شرعوا في التلاوة بقراءة "الحدر "، بنبرة صوت أقرب إلى الهمهمة، ورؤوسهم تتمايل على الجنبين، ويرفع شيخ الختمة صوته بالتكبير أو التهليل. المشهد بديع، وقد حضر رجال الحي ووجهاؤه، وجلسوا خلف الحلقة، والمعلم " حسين " يخدمهم بنفسه أثناء الغداء، والضحكة تشق وجهه كثير العبوس.

نساء الحيّ اللائي قدمن مع أزواجهن، وملأن صالة البيت، دعتهن "تحيات" إلى مشاهدة الختمة عبر النوافذ المطلة على ساحة البيت، فالتصقت رؤوسهن وثبتت أعينهن على الحلقة، وقد ازدحمت الساحة بالرؤوس والعمم، وراحت تحيات تنادي على حسناء وأم سلامة أن تعدّ فناجين القرفة للرجال، والزنجبيل والكراوية للنساء.. دقائق وبرزت أم سلامة حاملة صينية عريضة، عليها إبريق القرفة والفناجين والمياه تنقّط منها، سألتها تحيات عن حسناء، فهزت أم سلامة رأسها نافية أن تعرف مكانها.

هتفت تحيات:

- أين راحت البنت ؟ تختفي كعادتها كلما احتجتها.

النسوة عدن إلى همسهن الذي يسعد تحيات، يصفن أكوام اللحم على الطاولات، وأصناف طبيخ الخضار، والسلطات المنوّعة، ناهيك عن شطائر الخبز المحشوة لحمًا... غمزت تحيات لإحدى صديقاتها المقربات، التي أسرعت هامسة أن الحاجة تحيات هي المتحملة لليلة كلها لوجه الله، وأنها تصدقت بالخراف الثلاث، وكل الأكل من خزين البيت وخيره.. تطلعت النساء إلى " تحيات " التي لم تكل عن الحركة، وإلى زوجها الذي آثر الجلوس في صدر الحلقة مستقبلاً بركات المشايخ، ودعاء الحضور له، وإشادة الضيوف بسخائه.

• • • •

ضربت " تحيات " صدرها وهي تدلف غرفة ابنتها حسناء في الطابق الثاني، وقد اقتعدت سجادة الصلاة وحجابها متزحزح قليلاً عن رأسها فبرزت خصلات شعرها سوداء غزيرة، كانت جافة الشفتين، وأمامها المصحف مفتوحًا، تحدِّق فيه بنظرات واهنة، ثم تنصت إلى ما يأتيها من أصوات الحلقة، فتارة تسرع بتلاوة الآيات، وتارة تهمهم بالأدعية والأوراد..

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ أنادي عليكِ ولا تردين !

لم ترد البنت، وحين دفعتها أمها من كتفها..

انهمرت دموعها، فقد امتلكها الوجد.

* * *

يـومٌ ... بيـوم

أمام مزلقان القطار بحي البارودية، جلس على حجر عريض، حاملاً فأسه ومنجله وجوالا نصف ممتلئ، يرتدي جلبابًا بلديًا فضفاضًا، نظيفًا من غير كيّ، وقد شدَّ على رأسه عمامة تحميه من حرارة ستشتد مع توسط الشمس كبد السماء.

لا يعرف كثيرًا من طرقات المدينة، فقط محطة القطار وما حولها عندما يختتم القطار مسيرته، وكذلك مزلقان البارودية حين يتباطأ القطار إلى أن يتوقف، لينزل الموظفون والطلاب وباعة السوق، وهو معهم فيتخذ مكانه دون أن يعلن عن نفسه، بل يظل في صمت لا تقطعه إلا حركته للصلاة في المصلى الصغير جانب حجرة عامل المزلقان، أو تناوله لقيمات ملفوفة بعناية في كيس قطني.

" عبد التواب " هذا اسمه، دون كنية تسبقه أو لقب يصاحبه، لم يعرف سبل الرزق في بندر المدينة إلا منذ سنوات قليلة، لا يتذكر عددها، ولكنه اعتاد على مشواره اليومي، عدا يوم الجمعة.

في المرة الأولى، حين ركب القطار من محطة قريته، قادمًا إلى البندر حاملاً فأسه، استغرب أهل البلد الراكبون معه، وسألوه عن وجهته بفأسه، أجابهم سأبحث عن شغل، فقالوا له :

- أنت كبير في السن، وماذا ستعمل في البندر؟

أجابهم :

- نفس شغلتي في البلد.. جنايني.

فقالوا :

- أجّرْ أرضا أو اشتغلْ في غيطان البلد، فهذا أكرم لك.

- أنا أزرع الزهور والأشجار، ولن أفلح الأرض ولا أجمع المحصول.

- الفلاح الشاطر يشتغل في أي مكان.

- أنا جنايني فقط.

سكتوا، وسكت هو مؤثرًا النظر من نافذة القطار إلى خضرة الحقول المتراكضة، والتي قضمت المباني الكثير من أراضيها... أشاروا له أن يهرب من دفع التذكرة قبيل مرور المحصّل، فابتسم وبسط كفه عن نقود فضية، فيما تسلل البعض ونام آخرون.

في المرة الأولى نفسها، وعند نزوله في المزلقان، ناداه رجل ببذلة أنيقة وشارب لطيف، وقد ترجَّل من سيارته، عارضًا عليه أن يعمل في حديقة فيلته، ابتسم عبد التواب، وهتف: يا لفرج الله. وانتفض من جلسته بفأسه، فعاد الرجل الوجيه يسأله:

- أنت فلاح أم جنايني ؟

أجابه:

- جنايني، طول عمري.

قضى نهاره في الحديقة، نسَّق زهورها، وهذَّب أشجارها، وأزال النباتات الطفيلية.. راقبه الوجيه وزوجته مبتسمينِ، فلمساته أظهرت جمال الحديقة.. أذَّن الظهر، صلَّى عبدالتواب وغفا أسفل شجرة السنط، واستيقظ على صينية الغداء، تحملها الخادمة.. قبيل المغرب ارتفع غناؤه، وهو يتأهب للعودة.. نفحه الوجيه مبلغًا سخيًا، على وعد أن يأتي كل عشرة أيام أو أسبوعين، أجابه الجنايني:

-أنا يوم بيوم، يحيينا المولى إن شاء.

••••

بيته كان بالقرب من عمله في فيلا " إبراهيم بك "، يصلي الفجر، ثم يجلس في مندرة الدار، وبجانبه زوجته " خديجة "، وقد تعبّق البيت برائحة العيش الطازج، الذي أخرجته خديجة من الفرن البلدي، وتأتي ابنته " وداد " حاملة الأرغفة الساخنة، ومعها صينية معدنية عليها صحن حليب جاموستهم، المحلوب قبل قليل، والقشدة عائمة على اللبن الدافئ، ومعها طبق جبن قريش.. بدأوا طعامهم بالبسملة وانتهوا بالحمدلة، فالشاي الأسود على موقد الحطب، ومن ثم اتجه إلى عمله في حديقة الفيلا.. وبعد صلاة الظهر، يضطجع تحت شجرة الصفصاف التي غرسها أول أيام عمله بالحديقة، وجعلها شاهدة على أيامه المتتابعة، فإذا انتبه من قيلولته، اتجه إلى كوخه، ليعدَّ كوبًا من الشاي، يستلذ برشفه بين أحواضه التي ترسل روائح شتى، يتعب الحصيف في تحديد ماهية زهورها.

كان قلقًا على " إبراهيم بك " الذي يعشق الحديقة، فقد تقدّم السن به، ويخشى أن يبيع أولاده الفيلا أو يهملوا حديقتها، ولكن الاطمئنان عاد إليه بعد وفاة إبراهيم بك، ومجيء أسرته، وقرارهم العيش جانب أرضهم في القرية، عاقدين العزم على تجديد الفيلا وحديقتها.

تشابهت أيامه، فصفت نفسه، وصار أمسه لا يختلف عن غده، والصباح يماثل المساء، بات خريف عمره مثل شبابه، هل يطمئن على قادم أيامه ؟ ليت الحياة تمضي على هذا المنوال ؛ راتب ثابت، وحال مستور، وزوجة متفانية، وخير يعم البيت، وخُطَّاب متقاطرون على ابنته منذ فورة جسدها، فاشترطت أمها أن تسكن بجوارها، فهي وحيدتها التي جاءت بعد مرات حملٍ غير تام، استمر سنوات، حتى تمت الأشهر التسعة، وجاءت وداد، حاملة فرحة كبيرة، وإن لم يتكرر حمل أمها، واكتفى والدها بها.

••••

فاز عمران الموظف المعيّن بالجمعية الزراعية، ذو الراتب الثابت بوداد، وحاز رضا والديها، لأنه قاطن بالقرب من بيتهم، وقسمت وداد أيامها يومًا عند والديها مع زوجها، ويومًا آخر في بيت أهله.. وبمرور الأيام، وانتفاخ بطن الابنة ؛ بات الزوجان مقيمين دائما.. واقتربت ولادتها، واستعد الجدان لأول حفيد، وقد قررا استمرار إقامة الابنة في بيتهما وإن أنجبت عشرة.

••••

في جلسته على المزلقان، الشمس تدنو من رأسه، فأعاد ربط عمامته، وانشغل بذكر الله، غير عابئ بلغط عمال التراحيل، وسبابهم المتتابع لكل فعل أو قول، جال بعينه فيهم، هذا ينفخ في الهواء بقرف، وآخر يضحك بعصبية دون سبب، وثالث يرتشف الشاي بصوت متصنع، كلهم في انتظار وقت يمرُّ بطيئًا توقعًا أن يطلبهم مقاول مبان أو متعهد أنفار أو أسطى أيًا كانت طبيعته، المهم أن يجدوا من يدعوهم لشغل، وليت الشغل يكون لأيام ليضمنوا يومياتهم. يضحك عبد التواب من أعماقه عندما يدّعي العمال معرفتهم بكل شيء في الفلاحة أو المعمار، لذا فهو غير آبه لسيارات النقل التي تتوقف، وتأخذ فردًا أو مجموعة وتسرع بهم.

مطمئن في مكوثه، فرزقه مرهون بأنفاسه في الحياة، إن لم يكن في ساعته فعليه الصبر لساعات أخرى أو لأيام.

• • • •

الوقت شارف على الغروب، تغدى جبنًا وخبزًا من "الزوادة " التي يحملها، وشرب ماء باردًا من زير قريب، عليه أن يعود للقرية، مستقلاً القطار، سيدفع التذكرة، وسيستيقظ من غده، لن يمل، ولن يؤجر أرضًا، ولن يعمل في حقول البلد بيومية أو شهرية، ولن يتحسب للمستقبل، فقد عاش سنوات حياته متحسبًا للغد، ولكن الغد جاءه بوفاة ابنته أثناء ولادتها، وكان يوم الجمعة، وفي الجمعة التالية، لحقتها أمها، ولم يصدق نفسه وهو يرى أبناء إبراهيم بك، يكتفون بشقة فاخرة بأحد أبراج المدينة، ويهدمون فيلتهم في القرية، بعد أن قسَّموا أرضها قطعًا صغيرة كأراضي مبان... ما أقسى أن ترى الزهور تنبت أعمدة خراسانية !.

* * *

الشـاي في السِّكة

اختار موضعه بدقة، في ميدان الحواتم، عندما يجب أن يتوقف سائقو الميكروباص لإنزال ركابهم، وتحميل آخرين جدد. مشروعه بسيط، في ركن بين سورين، نصب "محمود" حائطين بالطوب الأحمر، بينهما طاولة عليها موقد غاز صغير، وعلى الحائط الأيمن رف به أكواب زجاجية.

يتأمل ابنه الصغير "مرزوق" ذا الأعوام الخمسة الذي يصمم على مصاحبته دائمًا في غدوه الصباحي، حاملاً معه أكياس السكر وعلب الشاي والقليل من البُن حيث يضعها في رفٍّ على الحائط الأيسر.

يعود محمود ومرزوق ليلاً، حين تندر السيارات بالشوارع، ويتثاءب السائقون وهم يخاطبون زبائنهم بعيون محمرة، وأصوات مبحوحة، فيغلق مقهاه بباب خشبي، مستخدما قفلا حديديا قويا، ومن ثم يضع ابنه على كتفه فهو نائم في العادة، ويوقف أي ميكروباص شاء ليركب ؛ طامعًا في راحة وقتية يفتقدها في وقفته طيلة اليوم، يعلم أن أي ميكروباص سيمر على أطراف حي " الشيخة شفا"، مرغمًا على عدم الدخول، لضيق الحواري ما بين متر إلى مترين.. فلا يعرض السائق، ولا يطلب محمود منه ذلك.

يكفيه أن يكون جيبه ممتلئا بنقود معدنية وورقية، وابنه معافى على كتفه، وهو وإن كان منهكًا إلا أنه بكامل صحته، وستنتظره زوجته بوجبة ساخنة، تحتجز فيها المزيد من اللحم له، وستظل مع ابنتيه يقاومن النعاس، الذي سرعان ما يتلاشى عندما يستمعن لحديثه، ثم تعدّ زوجته حصيلة يومه، وتضعها عندها.

••••

عند سماعه بوق الميكروباص مرتين متتابعتين ؛ يسارع بكوب الشاي، إنها الإشارة المتفق عليها مع السائقين، بنظرة واحدة من محمود إلى السيارة وسائقها، يعرف المطلوب من الشاي ؛ ثقيل أو خفيف، كشري أو مغلي، ودرجة السكر ؛ خفيفة أو متوسطة أو زيادة، يناوله محمود أو مرزوق الكوب، والبخار يتصاعد منه، فيضعه السائق في حلقة معدنية مثبتة في التابلوه أمامه، ثم ينطلق بسيارته، وفي نهاية اليوم، يعدّ السائقون أكوابهم الفارغة المتجمعة في سياراتهم، ليعطوه أجرته، وبعضهم يؤجلها لصباح اليوم التالي.

مثلما يعرفه السائقون، وينادونه بأبي مرزوق، هو يعرفهم جيدًا، ويعرف طباعهم، فهذا " سمير " يؤثر أن يضع الراكبات الصبايا في المقعد المجاور له، يضحك محمود وهو يناوله كوب الشاي ملمحًا: " ليتك يا قلبي تتعلق يمكن ترتاح"، يدرك أن " سمير " لا يجيد معاكسة البنات، وحين يحاول يجد شتائم أو سخرية وبعضهن يؤثرن النزول فورًا... أما " الحاج أمين "، فهو حاج بالفعل حين كان يعمل في السعودية سنوات، بعد أن ترك وظيفته الحكومية، وبعد استقراره في البلد، حاول العودة لوظيفته ففشل،

فوضع ما جمعه في الميكروباص، وهو عادةً مُصِّر على ارتداء الجلباب السعودي، ليحكي قصته لمن يرتاح إليه من الزبائن، ولا يزال يقصّها حتى حفظها بنفس تعبيراتها، بل بات يرددها مترجِمًا على شهادته الجامعية كمهندس زراعي... أما " تامر الكييّف" فإنه عادة يطلب كوب الشاي الثقيل، عند بداية كل مشوار، فمزاجه لا يعتدل إلا ببرشامة وشاي، وإن كان محمود واثقًا أن هذا دور يبرع تامر في تمثيله، ولا يتناول الحبة إلا نهاية الأسبوع، لذا سمَّاه " كييّف الأونطة "، فهو يعمل بالوردية، ويوميته في أحسن الأحوال ثلاثون جنيها، والبرشامة تبدأ من عشرين جنيهًا.

أحيانًا ينزل أحد السائقين، جالسًا على المصطبة بجانبه، مستمتعًا بظل شجرة العنب التي غرسها محمود ومدَّ خيوطها، فيمدّ السائق رجليه اللتين تعبتا من تصلبهما طيلة الوقت على " الفرامل والدبرياج "، ينكشه محمود وهو يناوله كوب ماء باردًا قبل الشاي، مُصِرًا أن يسمع ما عنده، يسترسل السائق، وينصت محمود له ؛ مشتاقًا لسماع تجارب الناس ومشاكلهم، مشيرًا عليهم إن أعجزتهم الحيلة.. وهكذا اعتاد السائقون أن يختزنوا ما في نفوسهم حتى تحل نسمات المساء، لتجمعهم مصطبة أبي مرزوق، وفي العادة تكون الجلسة عند نهاية ورديات السائقين في العصرية أو ما بعد العشاء.

وحينما يطلبون منه أن يقدِّم الشيشة ولو في الليل، يرفض، ويقول : يكفينا حريق الدنيا، وحريق الشاي.

••••

تضحك زوجته " سمر " مع بناته وهو يقصّ لهن على العشاء ما سمعه طوال يومه من حكايات، ويشتد ضحكهن فيما يحكيه عن " مرزوق " النائم وعراكه مع السائقين، فطبعه عصبي، يصرخ ويضرب بقدميه ورجليه، وقد اعتاد السائقون على مناكفته.

وفي اليوم التالي، تعيد البنتان على مسامع الابن ما حدث، فيهجم عليهما بقبضاته، مصممًا أنه رجل يفعل ما يشاء وهما بنتان.

تُرْبِت " سمر " على كتفه وهما على الفراش، وتسأله متى يستريح، يجيبها متنهدًا أن الحياة شقاء، وحلمه أن يكون له دكان، يجلس هو على الحصّالة، فإن حدث أن تعب أو مرض أو... يمكن لها - سمر - أو مرزوق أن يكونا مكانه.

ينظر لها ويؤكد أنها بمليون رجل، فقد منعها من العمل في مصنع البلاستيك بمدينة " ٦ أكتوبر "، منذ أن خطبها، وقد أرادت مساعدته، خصوصًا أنه على باب الله، إلا أنه أقسم على ما قال ولن يحنث بقسمه.

••••

- وأنت ما حكايتك ؟

بوغت محمود، كان السائل الحاج أمين، الذي أكمل :

- دائمًا تسمع منا، ولم نسمع منك.

- ليست لي حكاية..

- كيف ؟!.. كلٌ منا له حكاية في الحياة، أو على الأقل له مشاكل.

ضحك محمود، وحكى بذهن رائق ؛ أنه كما يراه الناس، لا شيء يخفيه، يعرفون سكنه وأهله، ويعلمون أنه حاصل على دبلوم الصنايع، تخصص زخرفة، ولأنه لم يتعلم شيئًا في المدرسة، فقد خرج بلا حرفة، فعمل في صنع الشاي الذي يعرفه، وتزوج بنتًا بسيطة، أبوها حداد مسلح، تركتْ المدرسة وهي في الصف الثالث الابتدائي، تمنت الستر فقد عاشت مع أسرتها يومًا تأكل لحمًا، ويومًا بلا طعام.. لذا عملت في المصنع، لعل الطعام يستمر كل يوم.

• • • •

لم يصدق نفسه و" سمر " تخبره أنها جمعت عشرين ألف جنيه، ووجدت محلاً، وما عليه إلا تأجيره وتجهيزه لتجارة الغلال، ابتسم لأنه لا يعرف الشغلة، فأخبرته أنها تعلّمتها من جارتها، التي تتاجر بنفسها، ولما عاتبها، أخبرته أنها تفكر أن يدوم عليهم الستر كل يوم.

• • • •

هو جالس على الحصَّالة، مرتديًا جلبابًا نظيفًا، وهي تزن وتبيع.. فهم الشغل سريعًا، ولام نفسه كثيرًا لأنه اكتفى بصنع الشاي سنوات.

حين جاءته بكوب شاي من صنعها، ارتشفه بصمت، مشتاقًا إلى بصبصة سمير، وحكايات الحاج أمين، وتامر الكييف.

* * *

المؤلف في سطور

- د.مصطفى عطية جمعة
- روائي ومسرحي وناقد وباحث أكاديمي
- عضو اتحاد كتاب مصر، ونادي القصة بالقاهرة.

- جوائز دولية :

- جائزة مختبر السرديات بالأسكندرية، عن بحث " اختراق الوعي في سرد محمد حافظ رجب "، ٢٠١١م.
- جائزة اتحاد كتاب مصر (علاء الدين وحيد في النقد الأدبي) عن كتاب اللحمة والسداة، ٢٠١١م.
- جائزة مكتب التربية العربي لدول الخليج العربية، في أدب الطفل، عن رواية المحطة الفضائية الدولية، ومسرحية سفينة العطش، ٢٠١١م.
- جائزة المركز الأول في النقد الأدبي، مسابقة إحسان عبد القدوس، القاهرة ٢٠٠٩م.
- الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٩م.
- الجائزة الثالثة في النقد الأدبي، جائزة الشارقة، ٢٠٠٠ م.

- الجائزة الثانية في الرواية، نادي القصة، القاهرة، ٢٠٠١ م.

- الجائزة الثانية، لجنة العلوم السياسية، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ١٩٩٩م، بحث مصر والعولمة.

- الجائزة الثالثة، مركز الخليج للدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة / البحرين، ٢٠٠٢ م، بحث مؤشرات التطور الديمقراطي في البحرين.

- أربع جوائز عن بحوث فكرية في مسابقة الكويت الدولية الإسلامية،

- ثلاث جوائز عن قصص قصيرة في مسابقة الكويت الدولية الإسلامية

- جائزة (المركز الثاني) في مسابقة الشخصيات الخيرية في الكويت، ٢٠٠٧م.

■ صدر له :

١ - وجوه للحياة، مجموعة قصصية، نصوص ٩٠، القاهرة، ١٩٩٧م

٢ - نثيرات الذاكرة، الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، القاهرة / الكويت، ١٩٩٩م

٣ - دلالة الزمن في السرد الروائي، نقد، جائزة النقد الأدبي، الشارقة، ٢٠٠١م

٤ - شرنقة الحلم الأصفر، رواية، الجائزة الثانية في الرواية عن نادي القصة المصري، ٢٠٠٢، ومركز الحضارة العربية،٢٠٠٣م.

٥ - طفح القيح، مجموعة قصصية، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٦ - أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، نقد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦

٧ - أمطار رمادية، مسرحية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٧م.

٨-

٩- هيكل سليمان (إسلاميات)، دار الفاروق للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م.

١٠- ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠.

١١-نتوءات قوس قزح، رواية، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

١٢-اللحمة والسداة، نقد أدبي، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠

١٣-الرحمة المهداة، خلق الرحمة في شخصية الرسول (ص)، إسلاميات، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠١١ م.

١٤-مقيم شعائر النظام، مسرحيات، دار الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.

١٥-قطر الندى، مجموعة قصصية، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٣م.

١٦-الظلال والأصداء، نقد أدبي، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٣م.

١٧-الحوار في السيرة النبوية، مؤسسة شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٣م.

١٨- سفينة العطش، مسرحية للأطفال، مكتب التربية العربي، الرياض.

١٩- المحطة الفضائية الدولية، رواية للأطفال، مكتب التربية العربي، الرياض.

▪ تحت الطبع :

- الوعي والسرد، نقد أدبي، سلسلة الكتاب الفضي، نادي القصة، القاهرة.

- الفصحى والعامية والإبداع الشعبي : قضايا وجماليات.

- جامع الأمة، الحسن بن علي، رواية للأطفال، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

- الحكيم والصبيان، مسرحيات للطفل.

▪ البريد الإلكتروني : mostafa_ateia123@yahoo.com

mostafa_ateia1234@hotmail.com



www.shams-group.net